المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

مذكرات رحالة عن المصريين

وعاداتهم وتقاليدهم فى الربع الأخير
من القرن الثامن عشر
من خلال وصف الرحالة جون أنتيس
(١٧٧٠ - ١٧٨٢)

ترجمة وتعليق وتقديم

أ.د. / سيد أحمد على الناصرى

Bibliotheca Alexandrina
0016436

22

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة

مذكرات رحالة عن المصريين

وعاداتهم وتقاليدهم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس (١٧٧٠ - ١٧٨٢)

ترجمة وتعليق وتقديم
أ.د. / سيد أحمد على الناصرى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ سابقا
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٩٧

هذه ترجمة كاملة لكتاب

OBSER VATIONS
ON THE
MANNERS AND CUSTOMS
OF THE
E G Y P T I A N S,
THE
OVERLOWING OF THE NILE AND ITS EFFECTS
WITH
REMARKS ON THE PLAGUES,
AHD
OTHER SUBJECTS.

WRITTEN DURING A RESIDENCE OF TWELVE YEARS

IN CAIRO AND ITS VICINITY.

BY JOHN ANTES, ESQ

OF FULNEC, IN YORKSHIRE

ILLUSTRATED WITH A MAP OF EGYPT

LONDON

PRINTED FOR JOHN STOCKDALE, PICCADILY

1800

الاشراف الفنى : محمود القاضى

الإهـــداء

إلى زميلى وصديقى المؤرخ

الأستاذ الدكتور/ رءوف عباس حامد أستاذ التاريخ المصرى الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة القاهرة أهدى هذا العمل رمزاً للتعاون والصداقة.

المؤلف

يوليو ١٩٩٧

أولا :

صورة مصر فى عيــون الرحالة الأوربييــن

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

مقدمة بقلم :

أ. د. سيد أحمد على الناصرى

(أ) مقدمـــــــة:

لقد ورث الأدب الأوربى عن الآداب الإغريقية والرومانية موضوع الاهتمام بمصر: وجغرافيتها، وتاريخها، وآثارها، وطباع وعادات شعبها باعتبارها بلدا مثيرا للعجب على حد تعبير أبى التاريخ هيرودوت، فالبحث عن أسباب فيضان النيل، واستكشاف منابعه، كانت موضوعا استولى على فكر فلاسفتهم وعلماء الطبيعة عندهم. فى أول الأمر كان اهتمامهم نظريا، ثم تحول إلى الجانب التطبيقى والعملى بعد فتح الإسكندر الأكبر لمصر وقيام حكم البطالمة، الذين شجعوا حركة الكشوفات الجغرافية فى النوبة، وزاد الاهتمام بدرجة أكبر بعد دخول مصر فى حوزة الأمبراطورية الرومانية حيث شهد ذلك العصر أول رحلة استكشاف منظمة لمنابع النيل فى عصر الأمبراطور نيرون، كما أعطى الكُتَّاب الرومان اهتماما أكبر بالكتابة عن مصر والحياة فيها وسر ظاهرة فيضان النيل، وكان ذلك بلا شك بداية لأدب الرحلات عن مصر.

وفى العصور الإسلامية، عندما أصبحت مصر جزءا من عالم متحد دينيا ولغويا وسكانيا، يمتد من آسيا الصغرى شمالا حتى النوبة والسودان جنوبا، ومن فارس شرقا، حتى سواحل الأطلنطى غربا، زاد الاهتمام بمصر حيث توافد الرحالة المسلمون عليها، وتابعوا مسيرة الكتاب الأغريق والرومان فى البحث عن مصادر النيل، وأسباب فيضانه، وكانت فرصة هؤلاء الكتاب أفضل بكثير من فرصة

مَنْ سبقوهم من الإغريق والرومان لأن مشكلة اللغة - أداة الاتصال بالناس - لم تعد قائمة، كما أن حالة الانسجام الفكرى والسلوكى بين أقطار العالم الإسلامى وفرت للرحالة المسلمين قدرا أكبر فى تفهم المجتمع المصرى، ولقد ساعد على الاهتمام بمصر مرور قوافل الحج بها، إذ إن الحجاج الأفارقةوالمغاربة كانوا يتوقفون بالقاهرة وهم فى طريقهم إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، لأداء فرائض الحج برا، أو عن طريق البحر حيث تتجمع جموع الحجاج عند بركة المطرية التى كانت تسمى فى القرن الثامن عشر بركة الحج، وعند عودتهم يمرون بالقاهرة أيضا.

ومنذ عصر النهضة الأوربية التى تميزت بإحياء كتب تراث الإغريق والرومان من ناحية، وترجمة الآداب العربية الإسلامية إلى اللغة اللاتينية الوسيطة، ثم إلى اللغات الأوربية التى تفرعت منها، أعيد اكتشاف أدب الرحلات عن مصر مرة أخرى، وشهد القرن الثامن عشر اهتماما متزايدا بكتب التراث الكلاسيكى دون الاستماع إلى معارضة الكنائس بأنها كتب وثنية، إذ كتب محرر مجلة النقد الأوروبى The Critial Review الصادرة عام ١٧٩٩ يقول: **«إننا لا نميل إلى موافقة البابا جريجورى الأكبر فى وجوب حرق أعمال الكتاب الكلاسيكيين لمجرد انهم وثنيون»**(١)

غير أن دافع الاهتمام بمصر قد تغير، ففى النصف الأول من القرن

(1) - Cf. The Critical Review, Vol. 2:27, 1799: PP 286 Seq

الثامن عشر بدأ الاهتمام بمصر بدافع إحياء أدب الرحلات الكلاسيكية وتقليده من ناحية، ومن ناحية أخرى إشباع الرغبة فى معرفة أسرار هذا البلد لدى جمهور القراء من الطبقة الوسطى فى أوروبا التى ازدهرت اقتصاديا، وبدأت تتطلع لزيادة المعرفة والتعلم، ومن ناحية ثالثة تنافست الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية فى نشر مذهب كل منهما وتحويل أقباط مصر إلى أتباع لأى منهما، ومن ثم ازدادت البعثات التبشرية إلى كل من مصر والحبشة، إذ يعترف الرحالة جون أنتيس فى إحدى مؤلفاته أنه قصد مدينة البهنسا لإقناع تجمع الأقباط فيها على قبول مذهب كنيسته البروتستانتية الألمانية (المورافية) غير أنه وجد مجاملة من جانب الأقباط، لكن لم يلق أية استجابة منهم(1)

أما منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر فقد اتخذ الاهتمام بمصر اتجاها آخر نتيجة للتوسع الاستعمارى والتجارى، ونتيجة لما أحدثته الثورة الصناعية من تكدس الإنتاج وضرورة البحث عن أسواق لتصريف هذا الإنتاج، وكذلك البحث عن المواد الخام، وجدير بالذكر أن الاهتمام بمصر لم يكن بسبب هذا، وإنما كان الاهتمام فى المقام الأول بمناطق إنتاج المواد الخام مثل الهند وأفريقيا، ونتيجة لذلك ازدهر أدب الرحلات فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، كجانب مهم من جوانب الأدب الذى لقى اهتماما واسعا

---

(1) J. Antes, Confidence in God, London 1799, P.6.

من جانب القراء، إذ توالى وصول سلسلة من الرحالة الأوربيين، حيث كانت مصر هى نقطة الانطلاق لرحلاتهم، سواء لإعادة اكتشاف طريق التجارة مع الشرق الأقصى عبر الجزيرة العربية والخليج، أو بحرا عبر البحر الأحمر إلى الهند. وهذا الطريق كان موجودا فى العصور القديمة، أو لمحاولة استكشاف مجاهل إفريقيا عن طريق اكتشاف منابع النيل، ولقد ساعد على ذلك اتساع نطاق الأمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية، وتحسن وسائل المواصلات بعد اكتشاف البخار، واستخدامه فى صناعة السفن، وازدهار الطبقة الوسطى فى المجتمعات الأوربية، ووصولها إلى درجة من الكفاية الاقتصادية أدى إلى ارتفاع مستوى وعيها وإقبالها على التعليم، وتوسيع نطاق المعرفة الذى دفعها إلى القيام برحلات سياحية إلى المشرق ليس للحج إلى بيت المقدس فحسب، بل لإشباع غريزة المعرفة وحب الاستطلاع والاستمتاع، ومن ثم شهدت هذه الفترة سلسلة من المؤلفات عن أدب الرحلات تركز أغلبها على مصر - بلد العجائب -

ولقد كان وصول الرحالة جيمس بروس James Bruce إلى مصر عام ١٧٦٨ فاتحة لمرحلة قدوم الرحالة والمستكشفين للطريق البرى القديم بين بريطانيا والهند عبر مصر، وفى نفس الوقت لمحاولة استكشاف مجاهل إفريقيا، ولقد حاول جيمس بروس فى كلا المجالين فى وقت واحد(1). وكان الطريق المعتاد الذى سلكه الرحالة

(1) James Bruce: Travels to discover the Source of the Nile (1768 - 37) Containing a Journey through Egypt, Arabia, and Ethiopia, 5 Vols Edinburgh 1790.

هو الوصول بحرا إلى الإسكندرية أو رشيد أو دمياط ،ثم استخدام المراكب النيلية حتى ميناء القاهرة الأول وهو بولاق، ومن القاهرة يلتحق الرحالة بالقوافل المسافرة إلى السويس، أو من السويس يأخذون السفن عبر البحر الأحمر إلى الهند، ولهذا ركز هؤلاء الرحالة على دراسة طرق القوافل التى تبدأ من القاهرة سواء إلى السويس أو إلى سنار فى السودان، والحبشة. ولهذا تزايد حجم المعرفة عن مصر، ونستطيع أن نرصد ذلك من خلال حجم ونوع ما كتب عنها منذ صدور الطبعة الأولى للموسوعة البريطانية Encyclopoedia Britannica عام ١٧٧٣، ففى هذه الطبعة خصص لمصر نصف صفحة فقط مليئة بالأخطاء التاريخية والجغرافية، مثل. **«ويجاور مصر من الشرق بلاد النوبة»** (١) أما فى الطبعة الثانية التى صدرت ما بين ١٧٧٨ ـ ١٧٨٢، فقد زادت المساحة المخصصة لمصر لتسجل خمس وعشرين صفحة تناولت تاريخ مصر القديم، ومصر الإسلامية، ومصر العثمانية، والمملوكية، كما تحدثت عن الأهرامات، والنيل، ومقاييس النيل، وعن السكان الذين قسمتهم إلى خمس فئات؛ هى:

١ ـ البدو [سكان الصحارى].

٢ ـ العرب وهو مصطلح أطلق على المصريين سواء من سكان العاصمة أو الريف.

---

(1) - M. Anis: British Travellers Impressions of Egypt in the late 18 th Century. Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo univ. vol. 15 part II (pp9 - 37) esp. P.25.

٣ ـ الأقباط:

الذى تقول عنهم إنه من الصعب تصنيفهم تحت أية ملة من الملل المسيحية لكنهم أتباع للكنيسة اليونانية وأعداء للكنيسة اللاتينية.

٤ ـ الأتراك

٥ ـ المماليك.

أما الطبعة الثالثة التى صدرت عام ١٧٩٧، فقد زيدت المساحة المخصصة لمصر عن ذى قبل، وشملت دراسة مفصلة عن التركيب الجغرافى لمصر ودراسة مفصلة عن المماليك ونظام حكمهم، وثورة على بك الكبير، كما أنها أعادت تقسيم المجتمع إلى أربع طوائف. هى:

١ ـ العرب: (وتشمل البدو والفلاحين والمغاربة والشوام)

٢ ـ الأقباط

٣ ـ الأتراك.

٤ ـ المماليك.

ويظهر تأثير كتابات الرحالة الفرنسيين: سافارى، وفولنى، على وجه الأخص فى دقة المعلومات، فحتى نهاية القرن الثامن عشر، كانت الأعمال المفضلة لدى القراء الأوربيين عن مصر هى كتابات بوكوك Pococke، ونوردن Norden، ونيبوهر Niebuhr، وفولنى Volney وسافارى Safari، بالرغم من أن جون أنتيس قد شن هجوما عنيفا على كل من فولنى وسافارى، واتهمهما بعدم الدقة، ولعل مرجع ذلك

إلى الضغائن السياسية التى كانت قائمة بين فرنسا وإنجلترا بسبب التنافس الاستعمارى والتبشيرى.

وبالرغم من ازدياد معرفة التجار الأوربيين بالطرق البحرية فى شمال أفريقيا وغربها، حتى قرب سواحل شرق أفريقيا، إلا أن الأجزاء الوسطى منها ظلت أرضاً مجهولة Terra incognita، ومن ثم فإن معرفة جغرافية مصر كان بداية لحركة الكشوفات الجغرافية البريطانية فى قلب إفريقيا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وكانت البداية اكتشاف منابع النيل فى الحبشة وفى المنطقة الاستوائية. ففى أواخر عام ١٧٥٨ اجتمع اللورد هاليفاكس رئيس مجلس التجارة البريطانى مع المستكشف جيمس بروس James Bruce وحثه على اكتشاف منابع النيل. ولكى يجهز بروس لهذا العمل عمل على تعيينه قنصلا لبريطانيا فى الجزائر حتى يتعلم اللغة العربية ويجمع المعلومات اللازمة عن طرق التجارة بين شمال ووسط أفريقيا ولما أتم مهمته فى الجزائر، وصل إلى الإسكندرية فى صيف عام ١٧٦٨ ليبدأ رحلته من مصر حتى الحبشة جنوبا، ثم يعود أدراجه عبر النيل. وقد استغرقت رحلة بروس ما يقرب من أربع سنوات (١٧٦٩ ـ ١٧٧٣). ولقد انتقد جون أنتيس ـ الذى نترجم كتابه عن مصر لأول مرة ـ ادعاء بروس أنه أول أوروبى وصل إلى منابع النيل، إذ إن الأب اليسوعى بدرو مابيز البرتغالى كان قد سبقه إليها عام ١٦١٥.

ونظرا لاستمرار القلاقل فى شمال إفريقيا، وتعرض مدنها الدائم لهجوم قبائل البدو، كما أشار جون أنتيس إلى وجود العداء المتوارث بين قبائل المور والبربر للمسيحيين الأوربيين عامة منذ طرد المسلمين من الأندلس، فقد جعل المستكشفون مصر نقطة البداية لرحلاتهم فهى أكثر أمنا، ولمرور طرق القوافل بها مثل طريق الحج القادم من غرب أفريقيا عبر المغرب والجزائر وطرابلس، وطريق قافلة دارفور الذى يبدأ من القاهرة إلى سنار ودارفور، ومن ثم فيمكن جمع المعلومات من أفواه التجار المغاربة والأفارقة والشوام المقيمين فى مصر، وكذلك من طائفة التجار الفرنجة التى كان يرأسها فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر تاجر بندقى شهير اسمه كارلو روسيتى، نجح فى إقامة صداقة مع مراد بك وإبراهيم بك زعيمى المماليك فى تلك المرحلة. ونظرا لأن اهتمام الرحالةالأوربيين كان منصبا على اكتشاف منابع الأنهار فى السنغال، والنيجر، وجامبيا، وكذلك ساحل أفريقيا الغربى، إلى جانب السودان والصومال، وشرق أفريقيا، ولما كانت هذه المناطق يسكنها أغلبية إسلامية، فضلا عن وجود جاليات أفريقية، تعيش فى القاهرة مثل النوبيين، والأحباش، والجلابة السودان، ولما كانت مصر بلد الأزهر الذى ينشر الإسلام، وتعاليمه إلى أفريقيا، فقد نقل الرحالة نقطة انطلاقهم من تونس إلى مصر لتعلم اللغة العربية، والإلمام بتعاليم الإسلام، وجمع المعلومات عن التجار.

ومن أشهر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر وكتبوا عنها الرحالة و.د..براون W.D.Browne الذى وصل إلى الإسكندرية عام ١٧٩٢. ليصاحب إحدى القوافل التجارية التى كانت تخرج من القاهرة متجهة إلى دارفور، وقد وصل بالفعل إليها عام ١٧٩٢، ولم يرجع منها إلى القاهرة إلا فى عام ١٧٩٦، وإلى جانب هؤلاء الرحالة الذين مروا بمصر عابرين، كان هناك فريق من الرحالة أقاموا بمصر زمنا كافيا للكتابة عنها، وتعلم لغتها، ومعرفة تاريخها، وأحوالها الاقتصادية، والاجتماعية ولهذا جاءت كتاباتهم أكثر دقة، ومن هؤلاء ج. بالدوين G. Baldwin وجون أنتيس، و س. لوسجنان S. Lusig-nan الذى كان تاجرا شهيرا فى القاهرة وعاصر كلا من بروس وورتلى مونتاجيو Wortly Montagu ولهذا كان مؤلفه مفصلا عن أحوال مصر فى أواخر حكم المماليك، إذ ترك لنا وصفا مفصلا عن ثورة على بك الكبير، ووصفا للقاهرة فى عهده ونظام حكم المماليك، كل ذلك ضمنه كتابه عن تاريخ ثورة على بك ضد الباب العالى العثمانى الذى نشره فى لندن عام ١٧٨٣ (١) وبالرغم من ذلك انتقد الرحالة الفرنسى ف فولنى(٢) هذا الكتاب بأنه تضمن معلومات جمعت من مصادر خاطئة ولكن قد نجد له العذر لو عرفنا أنه كتب عن هذا الحدث بعد مرور عشر سنوات ومن ذاكرته مما عرضه للوقوع فى الخطأ.

---

(1) S. Lusignan: A History of the Revolt of Ali Bey Against the Ottoman Porte etc. London 1783.

(2) F. de Volney: Voyage en Syrie et en Egypt pendant les annes 1783 et 1785. Per is 1787.

أما مؤلف الكتاب الذى نترجمه - لأول مرة - فهو جون أنتيس؛ ولد أنتيس عام ١٧٤١ من والدين ألمانيين، ويقول إن والده تجنس بالجنسية الإنجليزية، وعين موظفا فى الإدارة الإنجليزية لأمريكا قبل استقلالها. ثم التحق بالبعثة التبشيرية الموراوية Moravian (نسبة إلى موراويا فى تشيكوسلوفاكيا) الذى دعته إلى السفر إلى القاهرة للالتحاق بأصدقائه الألمان من أعضاء هذه الجماعة الدينية وهم: الدكتور هوكر Dr. Hocker، والدكتور دانكه Dr. Danke فوصل إلى القاهرة فى يناير عام ١٧٧٠[١] بعد رحلة شاقة بدأها من قبرص إلى الإسكندرية، ثم إلى رشيد، ثم عن طريق النيل إلى ميناء بولاق فى القاهرة. وكان فى نيته أن يلتحق هو ورفاقه بالرحلة التى كان يعد لها جيمس بروس لزيارة الحبشة بهدف القيام بعمل تبشيرى لخدمة الطائفة البروتستانتية، غير أن مرضه بالملاريا جعله يتخلف عن هذه الرحلة ولما عاد بروس من رحلته عام ١٧٧٣، قص عليه الأهوال التى رآها فى هذه الرحلة، مما جعله يلغى من ذهنه فكرة السفر إلى الحبشة والاكتفاء بالإقامة فى مصر وتعلم اللغة العربية وتأليف كتاب عن المصريين وطباعهم وتقاليدهم. وبهذا بقى فى مصر حتى غادرها

(١) عندما جاء أنتيس إلى مصر كان مؤرخ مصر الكبير عبدالرحمن الجبرتى طالبا فى الجامع الأزهر فى السادسة عشرة من عمره، وعندما غادرها كان فى الثامنة والعشرين من عمره ومشغولا برحلاته فى الداخل والخارج بينما كان محمد على باشا طفلا رضيعا فى الشهر الخامس من عمره.

فى السادس والعشرين من يناير عام ١٧٨٢ أى بعد اثنى عشر عاما(١) كما حاول أن يبشر بمذهبه بين الأقباط فى مصر فسافر إلى البهنسا فى مصر الوسطى، حيث كانت تعيش جالية قبطية كبيرة، وكما يقول هو فى مقال نشره فى مجلة أعمال الجمعية الدينية Relig-ious Tract Society الصادرة عام ١٧٩٩، إنه زار البهنسا يوم ٢٣ أغسطس عام ١٧٧٠، لإقامة أواصر الاتصال والمعرفة بأبناء الطائفة القبطية، ودعوتهم للتحول إلى كنيسته، وهناك ظل يبشر لذلك حوالى ستة أسابيع، غير أنهم كانوا يجاملونه، ويستمعون إليه، لكنهم ظلوا رافضين التحول عن عقيدتهم حتى إنه كان يتضرع كل يوم إلى يسوع كى يجعلهم يستجيبون لدعوته. وكان أنتيس عندما دخل مصر فى التاسعة والعشرين من عمره، وغادرها وهو فى الواحدة والأربعين من عمره. وذلك عام ١٧٨٢، أى قبل قدوم نابليون بونابرت على رأس حملته العسكرية بحوالى ستة عشر عاما(٢)، ويعترف أنتيس أنه فقدمذكراته و يومياته أثناء رحلة العودة البحرية، ولهذا لم يشرع فى كتابة مؤلفه عن المصريين إلا عندما بلغ الستين من عمره أى فى عام ١٧٩٩، ونشره بعد معركة أبى قير البحرية التى دمر فيها الأسطول البريطانى بقيادة نيلسون الأسطول الفرنسى فى رشيد لأنه أشار إلى ذلك فى هوامش الصفحات الأخيرة من الكتاب أى أنها إضافات لم تكن موجودة فى المتن الأصلى. غير أنه من المؤكد أنه نشر كتابه قبل حملة فريزر عام ١٨٠٣ لأنه لم يشر إليها على الإطلاق، لكنه علق

---

(١) في ذلك العام ولد محمد على باشا، بينما كان عبدالرحمن الجبرتى فى السادسة عشرة من عمره ولا يزال يدرس بالأزهر الشريف بينما كان نابليون بونابرت طفلا رضيعا في الشهر الخامس من مولده.

(٢) كان نابليون فى ذلك الوقت يبلغ الثالثة عشرة من عمره.

مستنكرا بشاعة المذبحة التى قام بها الفرنسيون ضد أهل الإسكندرية، كما قلل من أهمية انتصارات نابليون على المماليك، إذ ذكر أن مصر كانت بدون دفاعات ولا تحصينات، ولم يكن بها قلعة واحدة تصلح للأغراض الحربية. وكل موانىء مصر كانت مفتوحة وسهلة أمام الفرنسيين الذين كانت رحلتهم أشبه بالنزهة العسكرية، واتهم الفرنسيين بالنفاق، فما أعلنوه فى بياناتهم ومنشوراتهم للمصريين كان يتناقض تماما مع قسوتهم، وفى ذلك يتفق أنتيس مع الجبرتى فى تعليقه على الطريقة التى حاكم بها الفرنسيون سليمان الحلبى وقارنها بعدالة البكوات والمماليك الذين لا يبدون احتراما لأرواح الناس بالرغم من ادعائهم أنهم مسلمون[١].

لقد أقام جون أنتيس فى مصر أطول فترة أقامها رحالة، ولم يزد عنه فى ذلك سوى معاصره الرحالة جون بالدوين، الذى ساعدته ظروفه فى ذلك، إذ كان يعمل فى وكالة شركة الهند الشرقية فى مصر من ١٧٧٥ ـ ١٧٧٩، ثم كقنصل لبريطانيا لمدة تسع سنوات ١٧٨٦ ـ ١٧٩٥ أى ما يقرب أو يزيد على عشرين عاما مما ساعده على توثيق روابط الصداقة برجال الحكم وأعيان البلاد من البكوات، لهذا كان مؤلفه أهم المصادر عن أحوال مصر السياسية الاجتماعية، إذ إنه أول من كتب عن الفظائع التى أنزلتها قبائل البدو بالتجار الإنجليز، ورد فعل الحكومة فى القاهرة[١] وبالرغم من ذلك لم تلق مؤلفاته قبولا

---

(١) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار.. الجزء الاول ص ٤٢٣ وما بعدها. (٣/ ١١٧) «بخلاف مارأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون انهم مجاهدون. وقتلهم الأنفس وتجراهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية.

لدى القراء الإنجليز، لجفاف أسلوبه، وخلوه من المحسنات البلاغية، والعبارات المبهرجة، فى وقت كان التذوق الأدبى يطغى على الكتابة العلمية، كما أخذ عليه ظهور عنصر الأنا، والتقعر، والادعاء، إذ غالى كثيرا فى مغامراته، وتفاخر بما كتب، مما جر عليه الهجوم والنقد، وقد أشار أنتيس إليه كثيرا فى أعماله، إما صراحة أو غمزا، عندما ذكر أن أعمالا صادقة لم تلق القبول لدى القراء، لأنها كتبت بأسلوب خال من المحسنات البلاغية والجمالية، بينما نجحت أعمال كاذبة بسبب الأسلوب المبهرج الساحر، وعلو المكانة الاجتماعية لهؤلاء الذين ألفوها.

لقد رصد أنتيس - كما رصد من سبقوه ومن جاءوا بعده من الرحالة - أهم أمراض المجتمع وعيوب الإدارة فى مصر - وهى الرشوة والفساد والمحاباة التى هى صفة من صفات البكوات المماليك. ولقد كتب الرحالة كليجهورن Cleghorn بعد أيام قليلة من إقامته فى القاهرة يقول إنه لا يمكن عمل أى شىء فى هذا البلد بدون تقديم الهدايا. كما تحدث أنتيس عن ظاهرة وجود الحماية من ذوى النفوذ والسلطان للضعفاء، بل تهكم قائلا إنه لا يوجد شحاذ واحد فى القاهرة ليس له شخص يحميه، كما أشار إلى جشع البكوات المماليك الذين يسعون وراء الذهب والسلاح، فقد كان السلطان يخصص أموالا كل عام لحمل القمامة إلى أماكن بعيدة عن المدينة (كراكجى

(1) G. Baldwin: "Narrative Facts to the Plunder of the English Merchants by Arabs and other subsequent outrages to the Government of Cairo in the Course of the years 1779.

(Karakjee) إلا أن هذه الأموال كانت تذهب إلى جيوب البكوات المماليك، ولا يحملون هذه القمامة بعيدا عن المدينة بدرجة كافية، ولهذا فهو مثل براون لا يلقى اللوم على إسلطان العثمانى الذى كان يشار إليه باسم السنيور الكبير Grand Signior، إنما على البكوات المماليك، «لأن العيب - كما يقول أنتيس - ليس فى القوانين ذاتها، إنما فى الطريقة الفاسدة التى يطبق بها هؤلاء البكوات القوانين، وهنا يكمن الفرق بين نظام الحكم فى مصر ونظام الحكم فى دول أوروبا فى القرن الثامن عشر. ولهذا وصفوا حكم المماليك لمصر بأنه وصمة عار فى جبين الإنسانية.

إن أهم ما يميز مؤلف الرحالة أنتيس عن سائر الرحالة الأوروبيين الآخرين، أنه لم يشغل نفسه كثيرا بالأوضاع السياسية إنما بالأوضاع الاجتماعية للسكان. فقد درس سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم عن كثب، فقد أقام فى مصر اثنى عشر عاما، - تعلم خلالها اللغة العربية - لغة الاتصال بالجماهير والتجار العرب وفى ذلك تأثر بقول فولنى الفرنسى: **«من الصعب على المرء أن يقيم عقلية وشخصية أية أمة دون معرفة لغتها فما ينقله التراجمة لا يمكن أن يكون له نفس تأثير التخاطب المباشر ذاته.. وبدون البقاء وقتا كافيا لا يستطيع المرء أن يصدر حكما سليما، فالمظهر الأول للأشياء الجديدة قد يصيبنا بدهشة، ويلقى بالاضطراب فى نفوسنا، لهذا يجب الانتظار حتى تهدأ البلبلة الأولى، ثم يعاد النظر فى هذه الأشياء للتأكد من صحتها»**(١).

---

1 - Volney. OP. Cit Tome I. P. iv.

لقد كان هؤلاء الرحالة الأوروبيون معرضين دائما لقمع وجشع بكوات المماليك واستغلالهم، إذ لا نجد رحالة واحدا خلال الفترة ما بين ١٧٧٠ ـ ١٧٨٤ إلا ووقع ضحية فى شرك الأذى والاستغلال من جانبهم، فقد روى لنا جون أنتيس حكاية القبض عليه، وضربه «بالفلكة» حتى تورمت قدماه، وتجريده من معظم ثيابه وما كان فى حافظته من مال على أيدى أحد زعماء المماليك واسمه عثمان بكّ الذى وصفه بأنه: **«وحش فى صورة آدمى»**، وبالمثل تعرض الرحالة بالدوين وارفين وبوكوك للقبض والضرب، وفسروا هذه المعاملة القاسية بأن المماليك جشعون يبغون استنزاف أموالهم باعتبارهم فرنجة قادمين من بلاد الثراء، غير أن تفسير الرحالة لا تكشف عن الحقيقة كلها، فبعضهم كان فى مهمات تبشيرية فى وقت كان تأثير العداء الدينى المتوارث ـ منذ الحروب الصليبية، وسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين، وذكريات محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس فى أيدى المسيحيين الإسبان ـ لا يزال ماثلا فى الذاكرة، ويقابله شعور دينى أن بلاد الإسلام فى خطر من جانب الفرنجة النصارى، فقد ذكر أنتيس أن ميناء الإسكندرية الرئيسى كان مغلقا فى وجه سفن الفرنجة خوفا من نبوءة بأنهم سوف يحتلون مصر ويدخلونها من هذا الميناء، بالإضافة إلى ذلك فإن الدولة العثمانية كانت قد أغلقت البحر الأحمر فى وجه سفن غير المسلمين خوفا على الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة، وهناك سبب آخر لا يمكن إغفاله وهو المنافسة التجارية بين التجار العرب: من شوام ومغاربة من ناحية،

وتجار الفرنجة الذين كانوا يسعون للسيطرة على طرق التجارة منذ أواخر القرن الثامن عشر، وشعور المماليك بهذا الخطر، ولذا كان ردهم دفاعيا فى شكل استخدام الإسلام كرادع لوقف نشاط الفرنجة، ولهذا اشتدت نعرة التعصب الدينى، الذى اتخذ أشكالا عدة، فباستثناء داخل مدينة رشيد، كان الفرنجة ملزمين بارتداء الزى العثمانى، ويحظر عليهم ركوب الخيل فيما عدا قناصل دولهم وكبار المسئولين عندهم. وفى القاهرة كان الأجانب ملزمين بسكنى أحياء خاصة منعزلة، وتغلق بواباتها ليلا[1] وأن يوضعوا تحت المراقبة والتفتيش الدائمين، ومن ثم كان ذلك أحد العوائق التى حالت بين هؤلاء الرحالة وبين الالتحام بالناس، ودراسة طباعهم وعاداتهم عن كثب، وكثيرا ما لجأ الرحالة إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء إسلامية، والتظاهر بأنهم مسلمونّ هربا من الرقابة . ولقد حذر أنتيس الرحالة من الخوض فى أمور الدين الإسلامى أو محاولة إهانته لأن فى ذلك خطر على حياة الرحالة، ولم يرفع هذا الحظر إلا بعد حملة نابليون على مصر وقيام الدولة الحديثة فى مصر، فى عهد محمد على الكبير، حتى إن رجلا مثل المستشرق وليام لين William Lane تمكن أن يعيش بين المصريين، ويكتب عنهم بصورة أفضل بكثير عن ذى قبل(٢) ونتيجة لذلك، فقد زاد عدد الرحالة فى مطلع القرن التاسع عشر، وتنقلوا فى البلاد فى أمن وحرية مما جعل صورة مصر أكثر وضوحا فى أدب الرحلات عما

(١) كان حى الفرنجة يقع بالقرب من ميناء بولاق (شارع ٢٦ يوليو الحالى) حيث لا تزال توجد بعض المؤسسات الإيطالية حتى الآن.

(2) M. Anis, Op. Cit, p. 23

كانت عليه فى أوائل القرن الثامن عشر حتى إن محرر مجلة المختار Eclectic Review فى العدد الصادر عام ١٨٠٣ كتب يقول: **«لقد أعطت الأحداث العسكرية لهذا البلد (أى مصر) اهتماما خاصا، مما أتاح الفرصة لظهور أعمال كثيرة عن وصفها وتاريخها، حتى إننا أصبحنا نعرف نهر النيل بقدر ما نعرف نهر التيمز، ونعرف دلتا النيل معرفتنا بالريف الذى لا يبعد عن عاصمتنا سوى رحلة يوم واحد».**

لقد وصف هؤلاء الرحالة سكان مصر فى أواخر القرن الثامن عشر بأنهم يعيشون فى مرحلة الانحطاط والتردى، وشتان بين حالهم وحال أجدادهم الفراعنة، إذ يجرى أنتيس هذه المقارنة عندما يقول: **«إن المصريين القدماء كانوا علماء حقيقيين فى الفلك، أما معاصروهم فهم علماء فى التنجيم والدجل»** وقد فسر أسباب انحطاطهم الحضارى إلى هذه الدرجة التى تدعو للرثاء: بأن نظام الحكم القائم على الطغيان الشرقى حرم الناس من حقوقهم المشروعة فى التعبير عن أنفسهم، وتذوق الفنون الجميلة، وحرمانهم من إشباع غريزة المعرفة وإعاقتهم عن تحسين أحوالهم الاقتصادية، ويقول: **«كل ذلك يرجع إلى سوء تنظيم البلاد، حتى إن المعدمين منهم راضون وقانعون بحياتهم التعسة المزرية بالرغم من أنهم يعيشون فى قلب فردوس الأرض»،** ويبلغ به اليأس حد القول: **إن المصريين غير مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم، وأن الحل هو وقوع مصر فى حوزة دولة كبرى متحضرة وقوية، تعمل على إصلاح أحوالها وتحديثها، أو أن يظهر من بين المصريين بطل قومى متسلح**

بسلطات مطلقة، ليمزق الأطمار البالية وينفض عنها التراب، ويقوم بحركة إصلاح جذرية، على نحو ما فعل بطرس الأكبر بالروس.

أما بالنسبة لمكانة مصر التجارية، فهى فى نظره لا يدانيها بلد فى العالم من ناحية موقعها، وأن مدينة القاهرة بالذات مؤهلة لأن تكون المركز التجارى للعالم بأسره، ففيها يمكن لتجارة آسيا وإفريقيا أن تلتقيا حيث تأخذ طريقها إلى أوروبا، فهى مؤهلة أن تكون همزة الوصل بين العالم الغنى المتخلف، وعالم أوربا المتحضر. ولهذا يقدم عدة اقتراحات لتوصيل البحرين الأحمر والمتوسط، ويلاحظ أنه يستبعد حفر قناة مباشرة بين البحرين (أى قناة السويس)، ويفضل حفر قناة بين خليج السويس والنيل، أو بين ميناء القصير على البحر الأحمر ومدينة قنا على النيل، ويرى أن ذلك لن يتم إلا إذا وقعت مصر فى حوزة دولة قوية، تعمل على تحديثها، وإقامة العدل بين الناس، ومن أجل تحسين أحوال مصر الاقتصادية يقدم عدة اقتراحات لمشروعات فى الإمكان أن تُحدث طفرة اقتصادية لا مثيل لها فى هذا البلد.

●●●

هذا هو الكتاب الذى نترجمه، لأنه صورة صادقة إلى حد ما عن أحوال مصر قبل وصول الحملة الفرنسية، لأننا فى حاجة إلى أن نعرف كيف كانت مصر تبدو فى عيون العالم الأوروبى وأسباب التدنى الحضارى والاقتصادى، وسماع شهادة هذا الرحالة المعتدل

فى رأيه إلى حد ما. كما أن هذا المؤلف كتب فى مرحلة كانت فيها بريطانيا تتطلع لاحتلال مصر، وتتحرى عن الأحوال فيها، ومدى إمكاناتها الاقتصادية، وأهمية موقعها كهمزة وصل بين العالم الإفريقى والآسيوى والعالم الأوروبى، إذ نلاحظ أنه يعترف بأنه كتب ذلك تحت إلحاح طلبات من مسئولين بريطانيين. ولذلك لم يكد يصدر هذا الكتاب، حتى قامت بريطانيا بأول حملة فاشلة لاحتلال مصر وهى حملة فريزر.

إننا نترجم كتابا ليس مسليا فى حكاياته عن المصريين، والمماليك والأتراك فى تلك الفترة، بل يعرض للتاريخ الاجتماعى للشعب المصرى فى أحلك عصوره، ومدى تطلعات الأمم الاستعمارية واهتمامها بمصر تمهيدا لاحتلالها. ولهذا كنا دقيقين فى الترجمة، معلقين فى الهوامش لشرح نقاط تحتاج إلى التدخل. ولأن رحلة جون أنتيس قد مر عليها ما يقرب من قرنين وربع القرن، وما يقرب من قرنين منذ نشر مذكراته، فهو يدخل فى نطاق الوثائق التى لابد من ترجمتها لتكون بين أيدى القراء والباحثين فى تاريخ مصر الحديث.

المترجم

أ. د سيد أحمد الناصرى

نص ترجمة الكتاب

الفصل الأول

ثلاث رسائل مفتوحة إلى أولى الأمر

الرسالة الأولى:

رسالة إلى الجمهـور

لم أكتب الصفحات التالية أبداً بهدف نشرها، غير أن أيدى شخصيات موقرة تداولتها. ثم أضافت إليها ملاحظاتها، ومن ثم أصبحت تحتوى على بعض المعلومات المهمة التى يجب ألا تحجب عن الجمهور، خاصة أنها تلقى مزيداً من الضوء على ذلك البلاء المرعب: ألا وهو وباء الطاعون. لقد جذب هذا الموضوع اهتمام المؤلف، وأقل ما يمكن عمله هو تشجيعه لكى ينشر مذكراته التى كتبها لمجرد إشباع غريزة حب الاستطلاع عنده، بل إن بعض الشخصيات الموقرة نصحت المؤلف أن يضمن بحثه تاريخ هذا البلد وعاداته ومكانته وتجارته إلخ..

وبينما كان (المؤلف) يفكر فى ذلك الأمر، ظهرت خطابات المستر سافارى التى كتبها عن مصر، وبعدها بقليل ظهرت خطابات فولنى، مما جعله يهجر المشروع كله، لا لأنه يتفق معهما فيما كتباه، بل على العكس كان يختلف معهما تماما، لأنه لم يجد نفسه ملزما بمعارضة أحدهما فقط، بل كليهما، وبالتالى رأى أنه أحق منهما فى أن يُطلع الجمهور على أن كتاباته أجدر بالثقة من كتابات الآخرين. كما أنه رأى أن الجمهور لن يستفيد شيئا أن يعرف أموراً ليست بذات أهمية، ولا تقوم على أية مبادئ ثابتة مثل: هل ولد على بك فى العباسية أم فى بلاد الشركس Circassia أم فى جورجيا؟ وبأية طريقة مات؟ لأنه فى نظرى يكفى أن نعطى لأغلب القراء فكرة عامة عن المماليك وحكومتهم التى لم تتغير إلا قليلا عبر السنوات التى زارها فيها كل

من: بوكوك Pocock، ونوردن Norden، ونيبوهر Niebuhr (هؤلاء الرحالة الثلاثة أرشحهم للقراء وأفضلهم عن الآخرين).

إذ قدموا لنا معلومات كافية. حتى إن كتابات المستر سافارى(*) وفولنى(**) لا تعدو أن تكون تكرارا لها. فالأول يصف صعيد مصر كله بالرغم من أنه لم يخط خطوة واحدة خارج القاهرة، وقد كنت عليه شاهدا.. أما الثانى فقد جاء إلى القاهرة بعد عام واحد من رحيلى عنها(***) ولم يمكث فيها سوى سبعة أشهر دون أن يكلف نفسه عناء تعلم اللغة العربية، كما أنه جاء فى وقت عصيب كان السفر فيه إلى أعماق البلاد مخاطرة كبيرة، وبالتالى يجب ألا نتوقع لرواياته أن تكون صحيحة بقدر كافٍ لتصل إلى درجة التصديق.

وعلى القارىء أن يضع فى باله دائما أننى سطرت هذه الصفحات قبل رحلات مستر فولنى والمستر بروس بسنوات طويلة، وكذلك قبل أن أطلع على بحث المسترالكسندر روفل Alexander Ruffel عن الطاعون بوقت طويل، فإذا ما نال بعض منها رضا الجميع، فإن ذلك

(*) هو كلود أبيتان سافارى (١٧٥٠ - ١٧٨٥) جاء إلى مصر عام ١٧٧٧ وقضى فيها ثلاث سنوات ونشر عن هذه الزيارة كتابا هو: Savary: Lettre Sur L'Egypte, Paris, 1786. (المترجم).

(**) جاء فولنى إلى مصر ١٧٨٢ وتعلم اللغة العربية وزار مدن الوجه البحرى فقط، وألف كتابا صدر عام ١٧٩٢ وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية إدوارد البستانى بعنوان: ثلاثة اعوام فى مصر وبر الشام، والقاهرة ١٩٤٩م.

(***) أى فى عام ١٧١٨ (المترجم).

سيكون دعما لصالح الحقيقة، أما إذا اعتبرت بدايات لكاتب آخر يفوقني في الخبرة، ويستطيع أن يستخرج منها استنتاجات مفيدة من أجل صالح الجمهور، فإن المؤلف سوف يعتبر نفسه قد جنى ثمار المتاعب التي تعرض لها.

الرسالة الثانية:

رسالة إلى الموقر داينيس بارنجنون(۱)

Daines Barrington

سيدى:

منذ وقت مضى أخطرنى المكرم المستر لاتروب Latrobe أنه سيكون مفيدا أن أطلعكم على بعض ملاحظاتى التى دونتها حول عدة موضوعات فى مصر. ولو أننى وضعت فى اعتبارى الصداقة والتقدير الذى كان يكنه لك صهرى الراحل العزيز، لقمت على الفور بالاستجابة لهذا الطلب، لو أننى كنت سجلتها بالإنجليزية، لكن نظرا لأنى سجلتها بالألمانية، فقد تطلب منى ذلك بعض الوقت لترجمتها، كما أن مشاغلى الأخرى لم تسمح لى بالانتهاء منها إلا مؤخرا(۱) والآن اسمح لى أن أبعث بها إليك.

إن لى رجاء ملحا وهو بالرغم من أننى كنت أعتبر نفسى إنجليزيا، إذ تجنس والدى بجنسيتها، وتولى بعض الوظائف فى خدمة الملك فى أمريكا، إلا أنه نظرا لأنى تلقيت تعليما أجنبيا، وقضيت أغلب أوقاتى بين الأجانب، فقد كان من الصعب علىّ أن أجيد التعبير عن نفسى باللغة الإنجليزية بأية درجة من درجات الدقة. ولهذا أرجو أن تجد لى عذراً عندما أقدم لك هذا التقرير بعيوبه (اللغوية).

منذ نعومة أظفارى كنت مغرماً بالجغرافيا. غير أن وضعى وظروفى الأخرى لم تكن تسمح لى أن أنمى تلك الموهبة بالقدر الذى كنت أوده، ولذلك كنت أرضى نفسى - بقدر الإمكان - بجمع المعلومات من

---

(۱) يبدو انه كان مسؤلاً بريطانيا فى وزارة المستعمرات البريطانية (المترجم).

الأشـــخــاص أو من الكتب، وبالرغم من ذلك لم يثن ذلك رغـبــتى أن أتعمق إلى جذور أى موضوع يطيب لعينى، أو لدى بعض المعلومات عنه، وقلما قنعت نفسى بأول إجابة أتلقاها عندما أستعلم عن أى موضوع، لأنى كنت دائما أريد أن أستفسر على أى أساس بنيت المعلومة، وعما إذا كان الشخص الذى أعطانى الإجابة مؤهلا لإعطائى إياها كاملة أم لا. هذه النزعة هى التى دفعتنى فى كثير من الأحيان أن ألعب دور «مفتش الشرطة» اللحوح. خاصة فيما يتعلق بمصر، فقد لاحظت أن الرحالة إليها ـ بالرغم من توفر كل مصادر المعرفة لديهم، فإنهم يجمعون معلوماتهم ـ ليس بهدف إشباع غريزة حب الاستطلاع عندهم ـ بل كانوا يؤلفون حكايات حول رحلاتهم من أجل الكسب المادى، وحيناً كنت أقدم المساعدة لهؤلاء السادة، وحينا آخر كنت أقدم لهم النصح بحذف كل ما سمعوه من المصادر غير الموثوق بها، ولأنى أعرف من واقع خبرتى أن بعض العرب لن يتركوك دون أن يعطوك إجابة حيثما اتفق دون أن يعنيهم أنها تتضمن الحقيقة من عدمه، لأن كل ما يهمهم أن يظهروا أمامك عالمين ببواطن الأمور، والبعض الآخر يفعلون ذلك على أمل أن ينالهم منك بعض الفائدة. فكثيرا ما تملكتنى الدهشة أن يصل إلى أسماعى تلك المعلومات غير المتسقة التى تلقاها هؤلاء السادة (الرحالة) كإجابات عن استفساراتهم. ولو أن رحالة أجنبيا مر ببلادنا المتحضرة، وحاول أن يقدم وصفا دقيقا لأخلاق وطباع وحكومات شعوبها، ولخصائص البلاد وسكانها، عن طريق معلومات يجمعها من أفواه

المترددين على الحانات، وحوذية العربات وخادمات الغرف فى الفنادق، أو من المعارف الذين يلتقى بهم مصادفة فى عربات السفر - كما يحدث ذلك أحيانا - فإن اللوم يقع عليه وحده، أما لو كان رجلا حكيما، فإنه فى استطاعته أن يجد ما يكفى من الأشخاص الموثوق بهم والقادرين على إمداده بالإجابة عن أى استفسار يطرحه، وأن يدخل معهم فى نقاش حول موضوع أو أكثر من الموضوعات المهمة.

غير أن الأمر فى مصر يختلف، فالرحالة إليها بالرغم من توفر مزايا المعرفة لديهم، إلا أنهم عادة لا يعرفون شيئا عن لغة البلاد التى هى العربية، ومن ثم يلجأون إلى الأوروبيين أو إلى التراجمة، وحيناً يستأجرون يونانياً، أو أرمينياً، لهذا الغرض، وهؤلاء لم يكن يعنيهم أن يقدموا الإجابة الصحيحة الشافية - ربما لأنهم كغيرهم من الأوروبيين الموجودين بكثرة يجهلون أسلوب التقصى عن المعلومات الأساسية. وخلال إقامتى الطويلة فى مصر لم يحدث أن التقيت بأوروبى يقيم فيها ولديه من المعلومات ما يكفى لهذا الغرض بالرغم من أنه قد يكون ملماً بجوانب أخرى عن الحياة فيها. وكل المعلومات التى يقدرون على تقديمها هى تلك التى جمعوها من دائرة ضيقة من معارفهم. ولو افترضنا جدلا أن قلة منهم تمكنت عن طريق المعاملات التجارية من أن تقيم صداقة بواحد أو أكثر من علماء ذلك البلد - كما فعلت أنا نفسى - إلا أن هؤلاء الناس إما أن يكونوا ذوى أمزجة متقلبة، أو غير راغبين فى تزويد الأوروبيين بالحقيقة، أو قد يكونوا أناسا متباهين بأنفسهم لدرجة لا تطاق، فهم يبالغون فى كل شىء

معتقدين أن ذلك يضيف إلى كرامتهم. ولما كنت على بينة - بحكم إقامتى الطويلة - بمدى نزعة العرب لهذا الميل، فقد كنت حريصا ألا أصدق كل ما كتبوه عن تاريخهم القديم والحديث. فهناك كُتّاب حوليات عرب فى القاهرة الكبرى يقدمون معلومات مليئة بالتفاخر والمباهاة عن معارك صغيرة تافهة، وعديمة الجدوى، وقعت بين بكوات مصر، قد يسقط فيها خمسة أو ستة من القتلى من بين آلاف - وإنى لواثق من ذلك - لكنهم يدونونها فى كتب التاريخ لكى تظهر بعد عدة مئات من السنين أنها كانت معركة تفوق فى حجمها المعارك التى وقعت بين ملك بروسيا وأهل النمسا فى حرب السنوات السبع. وقد نفترض أن العرب بطبيعتهم الفطرية الميالة للإيمان بالخزعبلات، قد يحمّلون الحقيقة أكثر مما تحتمل فى حينها، إلا أننى مازلت أميل إلى الاعتقاد أن قدرا كبيرا من الحذر يجب أن نوليه لميلهم إلى نزعة الكبرياء القومية، فلو قبلنا ذلك فعلينا أن ندرك أنهم بالغوا فى الحط من شجاعة ورجولة أولئك الرجال الذين هزموا على أيديهم لتبدو هزيمة مهولة. وإذا اعتبرنا أن التقليل من رجولة المهزوم (الأجنبى) هو الدافع، فإن المنازعات الداخلية أيضا قد تجعل الناس يصبحون أيضا ضحايا لأعدائهم، وعلينا ألا نستغرب لأن ذلك هو الحال الذى كان عليه الناس فى تلك الأزمنة.

إن ما لاحظته آنفا يجعلنى أعتقد لو أن رحالة دفعه حب الفضول للمجىء إلى مصر، وأنه كان مزوداً بالمعرفة بقدر كاف، لكنه لم يمكث فيها وقتا كافيا حتى يجيد لغتها بحيث يكون قادرا على فهم ما يراه،

فإذا تعذر عليه ذلك، فإنه يلجأ إلى إرضاء نفسه حيناً بالتخمين أو بجمع المعلومات بطريقة خاطئة من الأهالى، أو من هنا وهناك من أحد التجار الأوروبيين الذين قد تنقصهم طريقة رصد الملاحظة الدقيقة، ومن هذه المصادر يضطر الكاتب إلى جمع مادته العلمية، وكثيرا ما تجد هذه الكتابات التقدير وتنال الثقة بسبب المكانة التى قد يشغلها مؤلفها فى دنيا المعرفة، أو بسبب الأسلوب الأدبى المنمق والمبهرج الذى كتبت به، وتتناقل الألسنة افتراضاته مرارا وتكرارا، ويقوم الآخرون بنسخها طوال القرن الذى يليه. وهذا فى رأيى هو السبب فى أننا نقابل مرارا وتكرارا لمزيد من الأخطاء الناتجة عن عدم الفهم فيما يخص الوصف الجغرافى. فمثلا يقول المستر فولنى فى مؤلفه عن رحلته إلى مصر(ص ٧٠): «إن جفاف الهواء خاصة فى صحارى مصر يصل إلى درجة بقاء جثث الموتى على حالتها بعد أن تجف تماما حتى إن الرجل فى مقدوره أن يرفع بيد واحدة جيفة جمل بأكمله». إننا نشعر بالرثاء لمثل هذه السخافات التى تتناقلها وتتضمنها بعض الموسوعات عن العلوم والفنون، والتى تتناقلها من قرن لآخر، فلو بذل (يقصد فولنى) أدنى قدر من التفكير، فإنه سيدرك أنه بالرغم من شدة الجفاف الذى يجفف الأجزاء كثيرة اللحم إلى درجة كبيرة، إلا أن عظام الجمل لا يقل وزنها عن ثلاثمائة رطل، وهى لا تجف كلية، ونفس ما يحدث من جفاف وفقدان الوزن يمكن مشاهدته بما يكفى فى هياكل المومياوات المتناثرة فى الحفر، والتى مر عليها وقت كافٍ لتصبح جافة.

وفى صفحة ٧٢ (من مؤلفه) يصف المستر فولنى الرياح الجنوبية بأنها خطيرة مثل رياح السامور Samour (ربما يقصد السموم) أو الساميل Samiel الشائعة جدا فى بلاد الرافدين والتى ذكر المستر بروس Bruce أنها شائعة فى بلاد النوبة، لكن الأمر ليس بذلك فى مصر، فخلال إقامتى فيها لم أسمع عن شخص واحد اختنق بسببها، بل إننى تعرضت لها عدة مرات فى الحقول المنفتحة، وفى إحدى المرات لم يكن لدى شىء لأحتمى، به أو كان لدى شىء قليل، غير أننى لم أشعر بمتاعبها أكثر من صعوبة فى التنفس عن الحد المعتاد، وأتربة لا تطاق، شديدة النعومة تنفذ إلى كل مكان.

غير أنه يجب أن يكون فى الحسبان ليس كل ما كتب يرجع إلى هذا النوع من التدنى، فهناك كتابات لرحالة أكفاء لم يمروا (بمصر) مرورا عابرا، بل أقاموا وقتا كافيا فى المناطق التى قاموا بوصفها، ولكن فى أيامنا هذه، صدرت مؤلفات كثيرة ومتعجلة، وبالرغم من ذلك نالت الثقة الكاملة، بينما نجد رجلا مثل المستر بروس الذى قضى أربعة أعوام فى الحبشة حتى تمكن من لغة أهلها، وتعرف على جغرافيتها جيدا لا ينال إلا ثقة قليلة، وذلك لأنه روى أشياء وتفاصيل موضوعات لا تثير اهتمام أحد.

ولنفترض - كما تفضلتم بالملاحظة - وأنتم فى ذلك على حق - أننى أول من روى أشياء رآها بنفسه فى مصر، وعلى سبيل المثال: أن بعض الأهالى فى قدرتهم أن يلتهموا الأفاعى أو نصف دستة عقارب

بأبرها كوجبة طعام. وأنهم يجرؤون على جعلها تلدغهم دون أن يحدث لهم أي أذى(١). فلقد شاهدت أناسا يمضغون القش كالحمير وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل. هل في هذه الحالة يظن العقلاء أنني دجال: إن هذه الافتراضات يمكن إثباتها كل يوم كحقائق في القاهرة الكبرى.

---

(١) يقول المستر سافارى (مجلد ١ ص٦٥) أن اكلى الأفاعى يتجنبون لدغتها وإذا كان الذين راهم قد تجنبوا ذلك، فأنهم لابد ان يكونوا من غير الفئة او الجماعة التى تملك السر، ولا يقصدون لفت الأنظار، بل مجرد تحاشى تأثير سمها وسم غيرها من الزواحف السامة مثل العقارب وغيرها (أما عن حشرة أم الأربعة والأربعين Centipedes فلم أرها فى مصر) وهؤلاء لابد أن يكونوا مجرد آكلى افاعى كالخنازير والغربان وغيرها من الحيوانات. ولما كنت قد اقمت طويلا فى القاهرة الكبرى، فقد أتيحت لى فرص كثيرة لكى أراقبهم، بل كنت أحيانا أقابلهم فى الشوارع وقد لفوا الثعابين حول أجسامهم: بعضهم لفها حول عنقه والبعض الآخر حول صدره، وهى حيات تسعى، لكنها تبدو قليلة الخطر. وعندما كان المستر بروس فى مصر فقد ودّ هو الآخر أن يراها. وكان يسكن مع تاجر فرنسى اسمه المسيو روز Rose، وهو صديق لى، ولذلك أرسل فى طلب أحد هؤلاء القوم ليعرض مهارته أمامنا. ولما دخل الرجل البيت سألناه عما إذا كان يوجد به ثعابين، فوضع يده على صدره وأخرج من عبه أفعى كبيرة لها قرنان، ثم القى بها على الأرض فأثارت هذه المعاملة القاسية الحيوان، فأتجه نحوالمسيو روز، وخوفا من أن تلدغه جرى الحاوى وراءها، وأمسك بها بيده العارية من وسطها، فاستدارت ولدغته بين السبابة والإبهام حتى تدفق الدم منها لكنه بدا كأنه لم يهتم، واكتفى بدعك مكانها بيده مع قليل من التراب العادى، ولم تظهر عليه أية تأثيرات، هل ياترى لانه كان قد قام بنزع نابيها والحويصلة التى تحوى السم!؟ إذ إن الحيوانات التى لدغتها نفس الأفعى بعد ذلك لم تمت على الفور، فقد قامت بعد ذلك بلدغ بعض الطيور وقطة ولم تمت. ولقد رأيت صبيانا عديدين يفعلون نفس الشيء. وعندما كان البارون توت فى القاهرة سمع بعض الأوربيين المقيمين فيها يتحدثون عن ذلك، فأثار ذلك فضوله لكى يشاهدها وتصادف أن صبيا كان يمر فى الطريق حيث تعود على المجيء إليه لممارسة الشحاذة، وكان يتقاضى بعض البارات إذا ما قام باصطياد بعض العقارب، فطلبنا منه=

= ذلك. فذهب الصبى على الفور - وكان لا يضع على جسمه سوى خرقة بالية من قماش، ويضع على رأسه طاقية صغيرة حمراء اللون - فذهب إلى بعض أسوار الحدائق العتيقة، ثم عاد إلينا بعد برهة خالى اليدين، فسألناه أين يخفى العقارب؟ عندئذ خلع طاقيته فقد كان يخفى تحتها خمس عقارب كبيرة للغاية القى بها على الأرض، وبدأ يلعب بها أمامنا، وكانت تلدغه عدة مرات لكنه كان لا يبدى أى اهتمام. وقد ساور البارون الشك عما إذا كان الصبى قد قام بنزع إبرها عنها، فانحنى ليتأكد من ذلك، غير أنه (أى الصبى) حذرنى بألا أقترب أكثر من اللازم، ولكى يقنعنى بعكس ما أظن، أمسك بعضها بأصابعه وأرانى الإبرة ثم بعد ذلك سألته كيف تعلم ممارسة عمل يخشى رفاقه أن يفعلوه، فأجاب قائلا: «لقد أعطانى أبى شيئا تناولته، أما الشيخ - (رجل الدين) - فقد جعلنى أبتلع وريقة عليها كتابات بعدها قال لى إنه لم يعد فى مقدور أية أفعى أو عقرب أن تلحق بى الأذى ومنذ ذلك الوقت أصبح حالى على ما عليه». ولأنى دائما لا أكاد أصدق الأشياء التى تبدو كأعمال الشعوذة فى مظهرها، فقد قمت بفحص الكثير من هذه الفئة من الناس لكى أستطلع السبب الحقيقى لذلك من أجل صالح البشرية، غير أنى لم أستطع أن أنجح فى ذلك. وكلهم اتفقوا على أنهم ابتلعوا شيئا، ولكنى اعتقد أنهم يقولون ذلك لإخفاء سر المهنة الذى يمتلكوه، ولكى يوحوا لى ولغيرىبفضائل القوى الغيبية التى يمتلكها شيوخهم، فقد كانوا يحيطون هذا الموضوع بمواضيع غيبية كثيرة حتى لا استطيع فهم شىء منها، وأتمنى أن يسعد الحظ أحد المهتمين بهذا الموضوع فى المستقبل. فإذا ما عرف السبب بطل العجب. وإذا ما وضعنا التفسير الغيبى جانبا، فقد يكون هناك شىء فى جفاف الطقس سبب إحداث هذا التغير فى هيكل الإنسان، بحيث يحقق له الحصانة ضد أمثال هذه السموم. وبالطبع يصعب علينا أن نتفهم كيف يتم ذلك لأننا لا نصدقه بسبب أننا لا نستطيع أن نقارنه بأشياء اعتدنا عليها فى حياتنا اليومية، غير أن هناك ظروفا معروفة لدينا لدرجة أننا لا نعطيها أى قدر من الاهتمام مثل السبب فى أن الشخص الذى سبق له الإصابة بالجدرى أو الحصبة يصبح محصنا من الإصابة بها إلى الأبد، هل لأن الاخلاط(*) وكل ما يمكن أن يكون أحد المسببات الأخرى والتى كانت تجعله قبل ذلك عرضة لذلك المرض - يكون قد تخلص منها جسده إلى الأبد؟ فلو صح ذلك كيف نفسر أن ظاهرة الأطفال الذين يولدون لأبوين تنطبق عليهما الحصانة... يصبحون عرضة للإصابة بها؟ وهذا ليس مفهوماً تماماً كالحالات السابقة، لكننا نراه يوميا حتى أصبح أمرا معتادا، وربما فكرنا فى ذلك فى البداية لكن لما عجزنا عن معرفة السبب، فقد أهملناه، ورضينا أن نعرف أنه كذلك. وبناء على ذلك فليس هناك ما يستبعد احتمال وجود دواء. إن انجذاب الأفاعى نحونا قد يبدو فى الوهلة =

=الأولى كما لو كان فى صالح الشعوذة، لكننا لا ننكر أن هؤلاء القوم يمتلكون سرا يجعلهم قادرين على ذلك.. بالإضافة إلى الحالات الأخرى التى سمعتها من اناس ذوى مكانة مرموقة كما أننى كنت شاهد عيان على حدوث إحداها. فقد عثر صديق لى اسمه المستر برونو أرنود وكان يسكن البيوت العتيقة فى القاهرة فى حجرة نومه على ثعبان، ولأنه لم يكن مرتاحا لهذه الصحبة، ولأنه كان يشك فى وجود ثعابين أخرى، فقد ارسل فى طلب احد هؤلاء الناس لإخراجه وعندما جاء صاحبنا قال له صديقى أنه يخشى أن يكون قد أحضر معه بعض الثعابين اخفاها فى «عبه» لكى يجعله يعتقد انه قد عثر عليها فى بيته، فشعر الرجل بانه قد أهين، فبدأ على الفور يخلع ثيابه قطعة بعد الاخرى حتى أصبح عاريا تماما، وراح يتنقل وهو على هذه الحال من حجرة إلى أخرى وهو يتمتم بكلمات غامضة، وبالفعل تمكن خلال وقت قصير من جمع حيات كبيرة حوله، حتى قال: لا يوجد غيرها فى المنزل. إننا عندما نسمع عن هذه الاشياء لأول وهلة فإن المرء عادة يكون عرضة لعدم تصديقها لأننا لم نسمع عنها ولم نرها من قبل. فلو أننا لم نكن قد سمعنا ولا رأينا ما يفعله صائدو الجرذان عندنا، ربما لكنا عرضة لنفس الشىء. غير أن هناك تفسيراً إذ إن هناك بعض المواد التى تعشقها الثعابين (تماما مثلما تعشق الفئران زيت الروديوم، وتعشق القطط زيت الناردين. الخ) يقوم الرجل بوضعها بين أصابع قدمه أو فى أى مكان آخر من جسمه لكى يجذبها إليه، اما ما يتمتم به من تعاويذ وهو من قبيل إضفاء المهارة والاهتمام على مهمته.

أما عن الناس الذين يمضغون كسر القش، فقد رأيت ذلك مرارا وتكرارا، إذ يجمعونها فى مخلاة تتدلى من على اكتافهم وهو ضرب من ضروب التسول الذى يقومون به وهم عادة يوجدون فى مكان يقع خلف موقع الفرن (المخبز) العام حتى يتمكنوا من جذب تعاطف المارة (تابع نص المؤلف).

---

* كان يظن فى الطب الشعبى القديم ان الاخلاط Humour هى المسببات الأربعة للعلل والاسقام وهى: الدم والبلغم والسوداء والصفراء.

١ - هو بينوا مابيه قنصل فرنسا فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن العشرين: انظر: إلهام ذهنى: **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر: تاريخ المصريين (٥٢)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢، ص ٥٣ - ٥٤.**

وعندما عاد المستر بروس من الحبشة كنت لا أزال فى القاهرة الكبرى، وكان لى شرف مرافقته يوميا طوال ثلاثة شهور. وكانت فكرة أن أتسلل إلى الحبشة تدور فى خاطرى، فقد كان يتملكنى حب الاستطلاع لمعرفة هذا البلد لأنى سمعت أشياء كثيرة عنه بدت لى لا تصدق. فلقد تعودت أن أسأل خادمه (أى خادم المستر بروس) اليونانى ميخائيل (وهو رجل على سجيته لا يعرف الكذب) عن ظروف هذا البلد، وكان يجيب عادة أنه يتفق وسيده تماما حول هذه النقاط، لكن لم يحدث أبدا أن حدثنى المستر بروس عن ولائم دم الثيران الحية التى يقيمها السكان، وإلا كنت تقصيت عنها، ولم أسمع من خادمه فقط، بل من شهود عيان كثيرين تحدثوا عن الأحباش الذين يأكلون اللحم نيئا. إلا أن المستر بروس هو بلا شك مصدرنا عن النيل، ولكنى لا أوافقه على توكيده وحرصه على ذكر أنه أول من وطأت أقدامه من الأوروبيين هناك (الحبشة) فهناك وصف ب. ج لوبو لها وهو معروف جيدا ويختلف فى النقاط الرئيسية عن الوصف الذى قدمه المستر بروس. وإلى جانب ذلك، فإنى أود له ألا يظهر الكثير من الأناة خلال وصفه، وأن يكون أكثر دقة فى رصد المسافات والصفات والأسماء، وألا يضفى على الأمور ألوانا مبهرجة حتى لا يجعل القراء يشعرون بالريبة فى الأمر كله.. وكنت قد استخرجت له أخطاء كثيرة ومعلومات متناقضة من هذا القبيل، وكنت أنتوى أن أبعث بها إليه لأنه أخبرنى عن عزمه إعادة نشر رحلاته بعد أن يضيف إليها ويعدل فيها، لكنى سمعت أنه قد قضى نحبه. إن حديثه عن الأهرامات فى مصر خاطئ تماما، ويبدو لى أنه كان ينقل عن آراء وانسلب -Wan

sleb، أما أنا فقد قمت بزيارتها أكثر من عشرين مرة وفى مقدورى أن أناقض نظرياته، وكذلك فكرته المضحكة عن اقتحامها (التى نقلها المستر سافارى عن مايبه Maillet وكان قنصلا لفرنسا فى مصر فى مطلع ذلك القرن[*]) (كما أننى أجبت عن أى تساؤل يطرأ، لكنى سوف أؤكد كثيرا فكرة أن الذين بنوها لو كانوا قلقين على إخفاء الحجرات داخلها، لكان فى مقدورهم إنجاز ذلك بطريقة أكثر فاعلية، ولو أنهم تركوا ممراً ملتويا فى الحائط العادى، ثم بعد أن يضعوا الجثمان يقومون ببناء حائط حوله بالحجارة العادية، لأنهم لو عملوا ممرات مبلطة بعضها تصطف على جوانبه ألواح الجرانيت الأحمر المشذب بمهارة وإعجاب، فإنهم فى الحقيقة يكونون قد لفتوا الأنظار إلى الطريق المؤدى إلى الحجرات بمجرد أن نكتشف واحدة منها، حتى لو أنها كانت مردومة عن آخرها كما يروى مايبه. ولو أننى حاولت أن أناقض كلا من سافارى وفولنى فى كل ما وقعا فيه من أخطاء لاضطررت إلى زيادة ملاحظاتى بشكل وحجم أكبر لدرجة غير مناسبة.

لقد علمتنى التجربة أن أتحرى حتى أصل إلى جذور أى موضوع قد يبدو عديم الجدوى، فمثلا كان الناس فى مصر منقسمين إلى طائفتين: طائفة «السعد» وطائفة «الحرام» على نحو انقسام الإنجليز إلى الوجز Whigs (حزب الأحرار) والتور Tories (أى حزب المحافظين)، وبالرغم من عدم وجود عداء بين الحزبين إلا أن الفرد

(*) فولنك: إحدى أعمال يوركشير فى وسط إنجلترا (المترجم).

يخبرك على الفور إلى أية طائفة ينتمى، ولقد جاهدت سنوات طويلة لكى أتبين أصل ذلك ولقد سألت مئات من الناس غير أننى لم أجد إجابة شافية حتى قبيل مغادرتى القاهرة عندما أخبرنى شخص أن هذه التفرقة نبعت من حادثة مقتل على (يقصد على بن أبى طالب) زوج ابنة محمد (صلى الله عليه وسلم) على يد جماعة عمر(؟) إذ صاحوا قائلين هذا نهار سعد أى أنه نهار سعيد، أما الحزب المناوئ فقد قال هذا حرام وخطأ. الخ(١) وهذا التفسير يبدو لى هو الأكثر احتمالا(٢). والآن فإنى أدرك مدى الصعوبة عندما أتفحص المنهج

---

(١) كتب قارئ أجنبى أو مستشرق على هذه الصفحة معلقا على ذلك بعبارة: There is neither Saad nor Haram, But I may Say to you Haram Alake أى لا يوجد سعد ولا حرام ولكن أقول لك حرام عليك.

(٢) وهنا كتب نفس القارئ بنفس الخط على نفس الصفحة عبارة Hadah Kalam Fa-regh or this is nonsenee. أى هذا كلام فارغ أو تفاهات. وأغلب الظن أن الرحالة جمع معلومات مشوشة عن انقسام الناس إلى شيعة وسنة. بعد مقتل الإمام على على يد اتباع معاوية وعن خلاف القبائل فى منطقة البحيرة بين قبيلتى الهنادى وأولاد على، ورد فى كتاب وصف مصر، الجزء الأول مايلى:«وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام وهما اقوى قبائل مصر وأكثرها شراسة، وعلى الرغم مابينهما من خصومات، ومايفرق بينهما من عادات بفعل من أحقاد وضغائن دينية إلا أنهما يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية (بقصد إقليم البحيره)، وتتبع واحدة منها أفكار شيخ يسمى سعد، أما الأخرى فتعتقد بقداسة شيخ أخر يسمى «حرام» ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والنفور، الذى استمر لأزمنة طويلة، ذلك ان أحدا لم يستطع ان يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسهما بل حدث أن انقسمت مصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه مما أدى إلى قيام العداوات والضغائن بين الفريقين، وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر، ويتوعده بعقوبات الدار الأخرة، حتى وضعت حكومة على بك الكبير حدا لهذه العدواة ⌘

العام الذى اتبعه الرحالة لجمع مادتهم، والذى يجعلنى شديد الشك لكل هذا الإنتاج المتعجل، بل إننى كثيرا ما اعتقدت أنه لا يوجد * وصف جغرافى يخلو تماما من الأخطاء، لأنه يبدو فوق طاقة الإنسان أن يلاحظ كل شىء بنفسه، أو أن يظن نفسه مؤهلا لكى يصدر حكمه على الأشياء كلها بنفس الدقة. لكن لماذا أثقل عليك بهذه التأملات التى لا يمكن أن تكون جديدة عليك.!

وكما سبق أن لاحظت فإن الفرصة غير متاحة لى لأعتمد كلية على نفسى لأننى كنت دائما غير راضٍ عن قدراتى، ولأنى كنت أعتقد أنه فى مقدورى أن أكون ذا جدوى للجمهور فى محاولتى تصحيح بعض الأخطاء التى تقابلها دائما، ولذلك فإنى لم أحاول أن أكتب شيئا بقصد أن يوضع أمام الجمهور، أو أن أكلف نفسى عناء جمع المادة، أو أن أسجل الأرقام والأبعاد والمسافات والقياسات الدقيقة، كما فعلت. ولكن عندما كنت فى ألمانيا بعد عودتى فى عام ١٧٨٢، أصبحت شديد الاستغراب للأسئلة غير المنسقة التى وجهت لى حتى من جانب بعض الناس غير المثقفين ثقافة عالية. فقد لاحظت أن

* ومنذ ذلك الوقت فإن الناس يكادون قد نسوا كلا من سعد وحرام. لكن اسمى هذين الزعيمين الروحيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة فى الصحراوات: انظر وصف مصر: المصريون المحدثون - تأليف علماء الحملة الفرنسية، ترجمة زهير الشايب، الناشر مكتبة مدبولى الطبعة الثانية ١٩٨٩ ص ٣٢ ، ٣٣ وفى رأينا أن هذا الخلاف يرجع إلى الخلاف بين السنة والشيعة خاصة إرتباط منطقة البحيرة بشمال أفريقيا حيث انتشر المذهب الشيعى فى العصر الفاطمى.

لديهم أفكارا خاطئة عن المناخ، وعن فيضان النيل، وعن وباء الطاعون. ولقد أجبت عن هذه التساؤلات من واقع الملاحظات التى دونتها من آن لآخر لمجرد إشباع غريزة حب الاستطلاع عندى، حتى يأخذ بعض أصدقائى فكرة عنها، غير أنى لا أعتبرها سوى مجرد تلال من المعلومات المتضاربة، والتى منها يستطيع الفنان الماهر أن ينتقى بعض الأجزاء لكى يوظفها من أجل الصالح العام. أما عن الموضوعات التى ذكرتها فأنا على ثقة أنه يمكن إثباتها إذا ما رأيت أن فيها فائدة للجمهور. ولقد حاول بعض أصدقائى إغرائى بطبع هذه المذكرات ولكنى لم أوافق على طبعها إلا بعد إعادة صياغتها فى أسلوب أفضل وهو شىء يفوق قدرتى بالإضافة إلى ذلك فإنى على استعداد لحذف أية إشارة قد تسىء إلى ذوى الرأى والمعرفة عامة، أو ما يبدو أنه رأى شخصى، حتى لا أسىء لأحد.

فإذا كانت هذه الملاحظات ـ مثل تلك التى سبق أن أرسلتها إليك ذات نفع تراه بالنسبة لك على وجه الخصوص، فأنا على استعداد لإمدادك بمعلومات أخرى إذ أعلمتمونى بالموضوع وسأكون دائما سعيدا أن تتهيأ لى فرصة أن أثبت لك كيف أنا ياسيدى.

خادمكم شديد الطاعة

جون

*** فولنك ٣٠ إبريل عام ١٧٨٨**

الرسالة الثالثة

رسالة إلى كابتن بلانكت

فولنك فى الثامن من يونيو عام ١٧٨٨

سيدى:

لقد تلقيت ردك الكريم المؤرخ فى ٣٠ مايو. ولأنى على استعداد لإمدادك بكل المعلومات عن القوافل التجارية التى تخرج من مصر قاصدة أعماق إفريقيا. إننى مدرك أن الأمر ضرورى لك ولذلك لن أقدم إلا أفضل ما عندى من معلومات، وأن تكون حقيقية جدا إذ قد يترتب عليها نتائج مهمة بالنسبة لهؤلاء الأشخاص المعنيين بها ولأنى ألتزم بذلك.

على حد علمى فإن هناك قافلتين تخرجان من القاهرة إلى الأصقاع الداخلية لإفريقيا: أولاهما تتجه إلى دنقلة ومن نفس الطريق تتفرع أخرى إلى سنار، بل حتى الحبشة. أما الثانية وهى الأكثر انتظاما فهى تبدأ من القاهرة إلى الصعيد، ثم تتجه غربا أو على وجه الدقة نحو الجنوب الغربى (بقدر ما استطعت فهمه منهم) قاصدة بلدا أو مكانا يطلقون عليه اسم تارفور (يقصد دارفور)، وهناك أيضا قافلة ثالثة تأتى من مراكش مع الحجاج الذين يقصدون مكة، وتعود من نفس الطريق، غير أن هذه القافلة الأخيرة لا تتوغل كثيرا داخل البلاد (إفريقيا) إنما تسير بحذاء ساحل البحر، كما أنه لم يكن مسموحا للنصارى بالسفر فى ركابها.

أما القافلة التى تتجه إلى دنقلة فينظمها ويقودها النوبيون الذين يعرفون فى مصر باسم «البرابرة»، وهم مسلمون متزمتون، غير أننى لا أظن أن الأوروبى ممنوع من السفر معهم لأنى عرفت بعض التجار اليونانيين الذين صاحبوهم فى رحلاتهم، وخطورة سفر المرء إلى هذه الأصقاع ليس بسبب القوم الذين يسافر معهم، ولكن بسبب وجود قبائل البدو الرُحَّل التى يجب أن يحذرها المرء، لأننى لا أظن أن النوبيين ميالون للغدر. كما أن لهم جالية كبيرة فى القاهرة الكبرى وهم يأتون إليها بحثا عن عمل لدى التجار كما يفعل المتجولون. ويشيد الناس بأمانتهم بشكل ملحوظ، إذ يرحب أى تاجر بتوظيفهم فى خدمته، بل أحيانا يكلفون بمهمات وهم يحملون معهم مبالغ كبيرة، ولا أذكر أن نما إلى علمى أن أحدهم خان الأمانة، وربما كانوا يتظاهرون أن يكونوا كذلك فى القاهرة الكبرى من أجل مصلحتهم الشخصية، وأنهم إذا ما عادوا إلى بلادهم أصبحوا عكس ذلك، لأنه من المعروف أن ملكهم فى سنار أقدم على اغتيال سفير فرنسى هو المسيو دو رول Monsieur Du Roule (١) وهو فى طريقه إلى الحبشة متحججا بعذر سخيف. وقد حدث ذلك عام ١٧٠٥. غير أنه من الإنصاف أن نقول إنه (أى السفير) دفعهم لارتكاب ذلك بجهله، حينما أراهم كل الهدايا الثمينة التى كان يحملها معه إلى ملك

---

(١) واسمه بالكامل لو نوار دو رول انظر: الشاطر بصيلى عبدالجليل: معالم تاريخ سودان وادى النيل، القاهرة ١٩٥٥ ص٨٥، وكذلك إلهام ذهنى: المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٥٦ (المترجم).

الحبشة، إننى أنحاز إلى جانب هذه الأمة، فلو كان الغدر من صفاتهم للاحظنا ذلك فى تصرف الكثيرين من بنى جلدتهم فى القاهرة الكبرى حيث يظهرون كأناس بعيدين عن الاستفزاز. إنهم ذوو بنية نحيفة كالعرب، وبشرتهم فى لون بشرة أهل الحبشة. ذات لون داكن مشرب بالحمرة. كما أنهم يتكلمون لغة خاصة بهم. وأى مسافر إلى بلادهم سوف يجد بسهولة فى القاهرة الكبرى العديد من أبناء هذا الشعب ممن يرغبون بإخلاص فى مصاحبته وممن يجيدون اللغة العربية، وهو أمر ضرورى للغاية يجب ألا تغفل عيوننا عنه.

أما عن القافلة الثانية التى تتجه إلى تارفور (دارفور) فينظمها ويقودها أناس يعرفون فى القاهرة الكبرى باسم «الجلابة»، وهم يشبهون النوبيين فى بعض صفاتهم، إلا أنهم أكثر ميلا لخصائص الزنوج فى لون بشرتهم وملامحهم، وهم أيضا مسلمون، ولكن ليس لدرجة التزمت، كما أنهم لا يؤمنون بالخرافات مثل الشعوب الأخرى. ولقد تعرفت إلى قائد هذه القافلة الذى بدا لى رجلا طيبا أمينا، بل إنه دعانى عدة مرات أن أصاحبه لزيارة بلده، ولم ينتابنى أى شك أو ريبة فى أن أضع ثقتى به إذا ما نويت القيام بهذه الرحلة، وكل ما جمعته من معلومات عنهم خلال علاقتى به لا أذكر منها سوى أنهم يأتون من أماكن بعيدة، ويواجهون مصاعب جمة أثناء الرحلة، وطالما عانوا النقص فى الماء لعدة أيام حتى إن كثيرا من إبلهم كانت تنفق فى الطريق. كما أخبرنى أنه لا يوجد خطر على الأجانب فى وطنه، وكل

شىء فيه متوفر، وأرضه خصبة، وأنهم يجلبون(١) معهم أعدادا كبيرة من الرقيق الزنوج ذكورا وإناثا إلى القاهرة، وهم أقرب إلى زنوج غينيا، أما الذكور فيقصدون بهم إلى قرية ما فى صعيد مصر (ضاع اسمها من ذاكرتى)(*) حيث يقومون بخصيهم وبيعهم فى كافة أنحاء تركيا. أما الكماليات التى يجلبونها فهى: سن الفيل، وتبر الذهب، وبعض أخشاب الأبنوس، والبلسم، والنسانيس، والقط السنور، والكرابيج المصنوعة من جلد فرس النهر، وجلود الثيران المدبوغة والمقاومة للنشع، والقرب لحمل المياه فوق الإبل عبر الصحارى، وهذا النوع من الجلد - على ما أظن - مدبوغ جيدا لهذا الغرض بطريقة لا يقدر على إجادتها أحد غيرهم، وإلى جانب السلع التى ذكرتها هناك سلع أخرى ذات أهمية أدنى.

وعقب وصولى إلى القاهرة قابلت مسيحيا من دمشق كان يقيم فيها، وضح لى أن هؤلاء القوم لا يكنون أى عداء للمسيحيين، وليس عليهم خطر إذا سافروا معهم، ولما كنت وقتذاك لا أفهم سوى كلمات قليلة من العربية، فلم أفهم شيئا عما رواه لى عن ذلك البلد وعن السفر إليه، وطبقا لما علمته من العديد من هؤلاء الناس فإنى شخصيا لن يساورنى أدنى قلق إذا ما غامرت بالقيام برحلة معهم إلى أعماق النوبة، كما أننى لا أشك فى أن هؤلاء القوم لهم علاقات عديدة، ويقومون برحلات خارج بلادهم إلى أغلب أعماق إفريقيا

---

(١) ربما لذلك اشتق اسمهم فى العربية وهو الجلابة (المترجم)..

(*) وهى قرية دير درنكة بأسيوط حيث كان الرهبان يقومون فيها بعملية خصى العبيد، فقد كان العبد الخصى أغلى ثمنا من العبد السليم، انظر: Baldwin. Slave trade in Egypt. London. 1801. P.12. (المترجم)

الداخلية، كما أنى لم أستطع أن أعرف عما إذا كانوا ينظمون قوافل أخرى بين طرابلس وتونس والجزائر، كما أننى لم أستعلم منهم عن هذا الموضوع بوجه خاص.

إن المسافر مع قافلة فى مثل هذه الصحارى يواجه مصاعب جمة ولا تقدر أية دابة حمل على تحملها إلا الجمل، والجمل ذو السنامين، وهو يستخدم لحمل البضائع والمسافرين. وهناك ثلاث طرق لذلك: إما أن يمتطيها الإنسان فوق الهودج، ثانيا: لديهم نوع من السلال (القطاوى) يضعون اثنتين منها على جمل واحد بحيث يسمح بالركوب، بل حتى بالنوم فوقه، ثالثا: أن لديهم محفة خاصة يطلقون عليها اسم التختروان، ويحملها جملان، وهى أفضل بكثير من ناحية توفير الراحة، وعادة تعد للنساء، وذوى البنية الضعيفة. أما المسافر فعليه أن يحمل معه ما يكفيه من المؤن والزاد والزواد طوال الرحلة. وعليه أيضا أن يحمل معه الآنية الضرورية لإعداد وجباته. وأن يكون معه جمل أو أكثر لحمل المياه، فقد لا يوجد لعدة أيام. كما أن عليه أن يجهز لنفسه خيمة يأوى إليها أينما تتوقف القافلة ليلا، أو ليحتمى فيها من شمس النهار المحرقة، وعليه أيضا أن يكون على معرفة باللغة العربيةحتى يجعل نفسه مفهوما، كما أن عليه أن يجهز نفسه بخدم أوفياء يكونون من نفس البلد المتجه إليه. لأنهم فى هذه الحالة يقومون على خدمته ويقومون فى نفس الوقت بدور الترجمة، لكن المرء يعجز أحيانا أن يختار أفضلهم لأن هؤلاء الذين يتظاهرون فى القاهرة - حيث يكونون تحت السيطرة - بالحماس الشديد لخدمتك، قد

يتحولون إلى النقيض تماما عندما يجدون أنفسهم أو يظنون أنهم قد تنفسوا الصعداء، (فى بلادهم) بل قد يصبحون فى بعض الأحيان من ألد أعدائك. ومن ثم فإنهم يضيعون عليك الفرصة التى تبغيها من الرحلة، بل يجلبون عليك الخطر بسلب ما معك أو فقدان حياتك. وعليه أيضا أن يكون مدعما بتزكية من جانب التجار المتعاملين معهم إلى قائد إحدى هذه القوافل. وهو أمر يمكن الحصول عليه بسهولة من بعض الأوروبيين وأفضل منهم التجار الدمشقيون الذين يتصلون بهم ويتعاملون معهم، وأهم من ذلك أن يحمل معه عددا من الهدايا التى يقدمها للأمراء والضباط فى هذا البلد الذى ينوى الذهاب إليه، ولا يتوانَ عن ذلك أحد إذا كان يبغى الحماية الكاملة لنفسه، وليس شرطا أن تكون هذه الهدايا باهظة الثمن لأن هؤلاء القوم قلما يقدرون أن يميزوا بين قيمة الأشياء ذات الجودة العالية أو قليلة الجودة، ويعشقون الأشياء الجديدة التى تخطف البصر والتى لا يقدرون على صناعتها بأنفسهم. ويمكن أن يتم ذلك بنجاح بمساعدة نصيحة بعض التجار الذين يتعاملون معهم بدلاً من تقديم كل ما يمكن تقديمه، فهناك فى القاهرة الكبرى العديد من التجار وكذلك الأوربيون والمسيحيون من أهل البلاد والأتراك الذين هم على استعداد لإسداء النصائح المفيدة ويقدمون المساعدة. ومن هؤلاء يجب على المسافر أن يحصل على تزكية. وأستطيع أن أذكر بالاسم الكثيرين منهم وأساعد فى ذلك.

ولقد سمعت من بعض معارفى من تجار طرابلس، وتونس، والجزائر الموجودين بكثرة هنا أنهم قاموا بالسفر برا فى أعماق كل هذه

المناطق. وطريقة السفر واحدة لا تتغير، لكنى لا أستطيع أن أقدم الكثير من النصائح عن الطرق التى يسلكونها أو المسافات التى يقطعونها. وأذكر أننى قد تعاملت مع تاجر جزائرى فى القاهرة الكبرى فى عدة مناسبات، قام بالتعمق برا، لكن لا أذكر اسم الأماكن التى ذهب إليها، وكان رجلا فى غاية الأمانة، وكان فى إمكانى أن أغامر بالسفر معه إلى أى مكان، لكن علينا أن نضع نصب أعيننا أن أمثال هذا الرجل نادرين جدا. ولذلك على المسافر أن يكون حريصا ولا يتعجل فى إقامة صداقات مع أى إنسان يبدى له مظاهر الصداقة لأن هذا النوع من الأصدقاء كثيرا ما يصبحون مصدرا للمشاكل، بل مصدرا للخطر.

وعموما فإن هذه الرحلات محفوفة بالمخاطر. والمقدم عليها يجب أن يخشى الخطر، فبالرغم من أن كل الظروف قد تبدو فى صالحه، إلا أن الواحد لا يستطع أن يضمن لأحد النجاح فى مهمته. هذا كل ما أستطيع قوله فى الوقت الحاضر ردا على خطابك، فإذا كان ذلك يكفى فسوف أكون سعيدا.

ولى الشرف أن أظل ياسيدى

المخلص دائما

جون

ملحوظة: عندما أعدت قراءة خطابك مرة أخرى بعد أن كتبت ما سبق تبين لى أننى لم أوضح ما فيه الكفاية الإجابة عن بعض الأسئلة التالية:

١ ـ السؤال الأول:

من هو الشخص المناسب الذى يمكن أن نستعين به فى مهمات من هذا النوع؟ وما هى المؤهلات اللازمة لذلك؟

٢ ـ السؤال الثانى:

إلى أى مدى تبلغ العداوة المفترضة من جانب المور نحو لفظ مسيحى وما هى أفضل الطرق لتفادى ذلك؟

وللإجابة عن أولهما أستطيع أن أضيف إلى ما قلته سابقا أن الشخص يجب أن يكون مؤهلا وعنده الموهبة القادرة على التقاط الملاحظات، وأن يكون له بنية جسمانية قادرة على تحمل الإرهاق الذى لا يمكن أن نتفاداه فى مثل هذه المهمات. وياحبذا لو كانت لديه موهبة الرسم أو كان فى صحبة من يجيده، فإنه سوف يضيف بالرسم أهمية كبيرة إلى ملاحظاته.، أما الإجابة عن ثانيهما أستطيع أن أضيف إلى ما سبق أن العداء للاسم المسيحى بين المور ليس ظاهرة مطلقة، فهناك من بينهم بعض الناس من له فكر متحرر خاصة من بين فئة التجار الذين على أكتافهم تقوم مثل هذه القوافل. وأن ثمة تقليد سائد بين هؤلاء الناس هو أن يبحث الواحد منهم عن الحماية من جانب من له نفوذ أقوى منه، فلا يوجد فى القاهرة شحاذ واحد ليس له شخص يحميه.، وبناء على ذلك فإننا ننصح المسافر أن يسعى لكى يجد له من يحميه من بين هؤلاء الرجال البارزين الأفاضل ذوى الفكر المتحرر. وعليه أن يسعى لذلك بلطف كما قلت سابقا، إذ

يمكن أن يحقق ذلك عن طريق بعض الهدايا البسيطة فى أول الأمر لكى يطلب الحماية لنفسه، ثم بعد ذلك يسعى إليها عن طريق إقامة صداقة مباشرة، والتى يمكن تحقيقها بسهولة. إنهم ينظرون إلى مسألة إضفاء الحماية على من يلجأون إليهم كنوع من الكرامة، ودائما يتصرفون لو أن أحدا من الناس ممن لا يعتقدون فى الخرافات جرؤ على إهانتهم.. إن الإدراك السليم سوف يلزم المهذب ألا يجرؤ على التحدث باحتقار عن ديانتهم، أو حكوماتهم، إلا فيما ندر، إن ذوى الفكر المتسامح بينهم يقدرون أى إنسان يتمسك بمبادئ دينه، ولا يخرج عليها بتاتا، كما أنهم يحتقرون الشخص الذى لديه عقيدة ولا يلتزم بواجباتها، ولهذا فهم يحتقرون الروم الأرثوذوكس، أو الروم الكاثوليك، الذين لا يلتزمون بأصول الصوم الكبير(Lent) لكنهم لا يسيئون الظن بالرجل البروتستانتى إذا ما عرفوا أنه طبقا لشعائر عقيدته - أنه غير ملزم به(١)

(١) هنا تظهر نزعة التعصب الطائفى والتبشيرى بين البروتستانت من جهة، وبين الكاثوليك من جهة أخرى، وبين الأرثوذكس من جهة ثالثة (المترجم).

الفصل الثانى

ملاحظات على وباء الطاعون فى مصر

إن هذا الوباء - بلا نزاع - هو أقسى أنواع البلاء الذى ينزل الرعب بالجنس البشرى، وفى نفس الوقت يمكن للإنسان أن يفلت من مثل هذا البلاء إذا ما استطاع أن يفرض على نفسه عزلا صارما حتى لو كان فى قلب مدينة تكتوى بنيرانه. إن اتباع الأوروبيين لذلك (أى للعزل) فى تركيا لقرون طويلة أثبت صحة العزل، كما يؤكد أيضا الملاحظات التالية التى دونتها فى القاهرة الكبرى خلال عام ١٧٧١ - ١٧٨١ ميلادية عندما كان هذا البلاء يعصف بالمدينة وكل أجزاء القطر خاصة مصر السفلى - بلا هوادة.

ولتحقيق العزل يجب تطبيق الإجراءات التالية عند اكتشاف وتبين أعراض الطاعون فى المدينة أو فى ضواحيها: إذ يجب على المرء أن يحرص على ألا يختلط كثيرا بالجماهير - وبالذات الطبقات الدنيا من الناس - خاصة أن اكتشافه فى القاهرة الكبرى أسهل بكثير من اكتشافه فى أغلب أجزاء تركيا. وهو عادة يأتى إليها من أزمير (Smyrna) أو القسطنطينية أو غيرهما من مثل هذه المناطق، ويصل أولا إلى الإسكندرية أو دمياط، ومنهما ينتشر بدرجات متفاوتة فى المدينة (القاهرة)، وعندما تبدأ العدوى فى الانتشار، يجب تجنب مخالطة الناس الآخرين، ولكى يحقق الإنسان ذلك بكفاءة، عليه غلق البيوت ولا يسمح لأحد بدخولها حتى ينتهى (الوباء). والطريقة المعتادة بين الأوربيين هى إقامة حاجز من الألواح الخشبية من وراء باب البيت، ومن خلال هذا الحاجز يفتح طاقة صغيرة لتسلم المواد

التموينية الضرورية، ويظل هذا الباب الصغير مغلقا على الدوام من أجل منع الخدم المستهترين من إدخال أى شىء خلسة. وفى مواجهة ذلك الباب، يوضع صنبور ماء فيه يقوم الخادم (الذى يقيم خارج الباب) بغمس كل المؤن حتى تغسل تماما، ثم تنشل منه لترسل إلى الداخل عن طريق خطاف من الحديد. أما الخبز، والأرز، والبن، أو أية مادة تموينية جافة مشابهة فقد ثبت أنها لا تنقل العدوى، وبالتالى يمكن إدخالها بأمان فوق لوح يحمله الخادم، أو أن يتم ذلك من خلال نافذة بواسطة حبل مجدول من ليف النخيل وسلة مجدولة أيضا من سعف النخيل. أما الملبوسات الأخرى المصنوعة من الصوف، أو القطن، أو التيل، أو الحرير، أو ما شابه ذلك، فيجب حظر دخولها إلى البيت بأية وسيلة خلال فترة العزل. كذلك يجب أن يجهز الباب بمزلاج بحيث يمكن فتحه عن طريق حبل يتدلى من الطابق الأعلى حتى يسمح للخادم بالدخول لإحضار المواد التموينية، ويجب أن يعد له مكاناً خلف البيت لكى يبيت فيه، أو يجلس فيه، ويكون رهن الإشارة، أما الرسائل فكانت عادة تحمل إلى الداخل عن طريق ملقاطين، ثم تتعرض للدخان أو تغمس فى الخل، وكان الأوربيون عادة عندما ينقلون رسائلهم أو أى شىء يبعثون به لبعضهم بعضا كانوا يضعونه فى صندوق خشبى مختوم بالشمع ودون أن يلف حوله خيط أو أى شىء من هذا القبيل، ويمكن تسلمه دون أى خوف بشرط التأكد من أن مرسليه يمارسون العزل بأنفسهم، ولا يفوتنى أن أذكر أنه يجب ترك جميع النوافذ مفتوحة، ويستطيع الإنسان أن يستمتع بالهواء

النقى فوق أسطح البيوت المسطحة، أو المبلطة خاصة أن الهواء يكون غالبا أكثر اعتدالا فى مثل ذلك الوقت من السنة.

ولم تحدث إصابة واحدة بين الأوروبيين أو الجنسيات الأخرى الذين سارعوا بالقيام بعملية العزل المطلقة فى الوقت المناسب، إلا أن كثيرين ممن لم يتوخوا الحكمة، وسمحوا بدخول مجرد أوقية واحدة من الحرير أو حتى مجرد منديل، إلى بيتهم من الخارج، فدفعوا أرواحهم ثمنا لذلك، وقد شاهدت بعض الحالات الصارخة وإليك إحدى الحواديت المضحكة الكثيرة التى كانت تروى بين الناس: قام رجل من الإسكندرية بحبس نفسه ليمارس عملية العزل، غير أنه لم يستطع أن يحلق شعره بنفسه، فأرسل إلى حلاق، وحتى لا يجعله يلمسه خوفا من انتقال عدوى الوباء، اكتفى بوضع رأسه خلال طاقة صغيرة فى الباب حتى يتمكن الحلاق من مهمته دون أن يلمس أى جزء من جسمه، وبالرغم من ذلك فقد دفع ثمن غبائه، إذ مات بعد أيام قليلة. وليس هناك أدنى خطر فى التحدث إلى الأشخاص المصابين بالطاعون من مسافة قليلة جدا، كما هو الحال عندما يلجأ هؤلاء المصابون إلى الأطباء الأوروبيين الذين يكونون فى حالة عزل. وقبل أن أحبس نفسى فى بيتى، شاهدت وأنا أسير فى الشارع أناسا يتساقطون موتى، ولقد حرصت على ألا ألمس أحدا.

إن تحديد أسباب الإصابة بالطاعون عن طريق فحص البدن يبدو لى أمرا غاية فى الصعوبة، وقلما ثبت صحة ما ورد فى النظريات التى

وضعت حتى الآن، حتى ولو حاول واضعوها إقناعنا، أنها قابلة للنقض عن طريق الملاحظات الميدانية، فتلك التى قد تبدو صحيحة فى القسطنطينية أو فى غيرها من الأماكن، قد يثبت نقيضها فى القاهرة الكبرى، فالموضوع كله يبدو مليئا بالمتناقضات حول مسببات هذه الظاهرة. فهى تسبب لنا الحيرة، ولهذا فإن الفيلسوف المفكر سوف يجد أمامه حقلا مليئا بالتأملات المفيدة.

ولقد ثبت من الخبرة أنه يمكن تجنب العدوى بسهولة حتى فى وسط الخطر المحقق، وذلك عن طريق اتباع العزل الصارم كما لاحظنا آنفا، والملاحظات التى رصدتها بخصوص ذلك تبدو متعارضة مع نظريات كثيرة ظهرت حتى الآن، والآن سوف أعددها دون أن أتجنب نقدها لأنها تبدو بعيدة عن الصواب.

ملحوظة رقم ١: هناك أسباب كثيرة ذكرتها الكتابات القديمة والحديثة أثبتت فيها أن مصر هى الموطن الأصلى الذى ينبع منه هذا الوباء، ولقد تردد عدة مرات أثناء الافتراضات أن الفيضان السنوى للنيل يترك من ورائه كمية كبيرة من الماء والطين فى المستنقعات وفى المناطق الواطئة فى الحقول، والتى تتعفن بعد ذلك، فتنقل عدواها إلى الجو لدرجة تساعد على ظهور الطاعون، وهذه النظرية تفترض مسبقا أن انتشار عدوى الإصابة تأتى من الجو. ولو قبلنا ذلك فكيف نفسر وقف تأثير العدوى بمجرد تجنب أى اتصال بالمصابين بها، بينما لا يجد هؤلاء المصابون بدا من تنفس نفس

الهواء دون أن يبذلوا أقل مجهود لمعالجته، كما أنهم لا يقدرون على حبسه، بل على العكس فإنهم يفضلون الاستمتاع به كلما أمكن ذلك، بل إنهم كثيرا ما ينامون فوق أسطح المنازل فى الهواء الطلق حيث يكون الهواء جافا من شهر فبراير حتى قرب نهاية شهر يونيو، وهو الشهر الذى يعصف فيه الطاعون بشدة لو ظهر خلاله، وعلى المرء أيضا أن يتصور لو أن الهواء كان فعلا ملوثا بالعدوى، فإن الآلاف الكثيرة التى لا تتوقف عن الإصابة به ثم الموت بسببه، لن تنقى الهواء، بل تزيد من نسبة العدوى فيه. وأقوى الآراء المعارضة للنظرية السابقة هو أن ماء النيل خالٍ تماما من هذه الصفات التى تحدث التعفن، بل على العكس فإنه لا يتعفن أبدا، كما يظهر ذلك تماما من العديد من الملاحظات المختلفة سوف أوردها عندما آتى لمعالجة هذا الموضوع.

ثانيا: ويرى آخرون أنه (أى الوباء) يتسبب من افتراض أن الأتراك قذرون، وهذا يفترض أن الهواء يتلوث بسببهم، وهو ما يتناقض مع الرأى السابق، وإلى جانب ذلك فإنه من الغبن أن نلصق بالأتراك صفة القذارة، أو أنهم شعب قذر، بل هم على العكس من ذلك خاصة الطبقة الموسرة منهم، فهى تعتنى جيدا بالنظافة بشكل واضح، كما أن تعاليم دينهم تحتم على أبناء العوام منهم أن يكونوا إلى حدٍ ما نظيفين، وإلى جانب ذلك يجب أن أضيف أن شوارع مدينة القاهرة الكبرى عامة، ليست شديدة القذارة كما هى الحال فى أغلب شوارع

مدننا، ولعل الظروف المحلية تلعب دورا فى ذلك، فالوقود نادر وباهظ الثمن ، ولذلك فهم يجمعون أى شىء يمكن أن يكون بديلا عنه من الشوارع، وبالتالى فلا توجد قمامة من أى نوع ولا أعشاب.. الخ. أما جيف الحيوانات مهما كان حجمها، فإنها تحمل إلى خارج المدينة. وهناك تلتهمها أعداد لا حصر لها من الكلاب والطيور الضارية، وكذلك أى شىء يترك فى أى ركن من أركان المدينة، لأنها تتعيش فى الشوارع على أى شىء تعثر عليه خاصة أنه لا يوجد لهذه الكلاب أصحاب.

ثالثا: يفترض كتاب عديدون أن مبعث الطاعون هو القناة أو الخليج الذى يخترق القاهرة الكبرى. صحيح أن الماء الذى يتخلف عنها يكون فاسدا لدرجة مزعجة بسبب صرف القاذورات عليها من المنازل القريبة منها، وكذلك من الأعداد الكبيرة من الحاجيات التى تفرغ نفسها فيها، والتى تسبب رائحة شديدة الكراهية، وتستمر لعدة شهور فى السنة لدرجة أنها تطفئ بريق الذهب والفضة فى البيوت القريبة منها، وفى هذه الحالة لابد من افتراض وجود هواء فاسد يعزى إليه سبب الوباء، وهذا لا يتفق مع الملاحظات التى سبق الإشارة إليها. وفى نفس الوقت هناك جدل قوى معارض لها يقوم على الخبرة الطويلة. فمنذ مائتى سنة ظلت بيوت التجار الأوروبيين فى القاهرة الكبرى تطل على هذه القناة أو بالقرب منها. ولم يحدث قط أن تأثر قاطنوها أو أى سكان آخرين يعيشون فى نفس الظروف

لخطر الوباء أكثر من غيرهم. وهذه حقيقة يؤكدها كل الأطباء الأوروبيين الذين سكنوا القاهرة الكبرى بعض الوقت، كذلك لم يصب أى من التجار - الذين مارسوا بصرامة - العزل بهذا الطاعون بالرغم من أن مثل هذه الظروف قد تبدو مسببة للهلاك فى بلادنا، لكنها ليست كذلك هنا. ولا يوجد سبب أعزى إليه ذلك غير أن هواء مصر شديد الجفاف خاصة خلال ذلك الفصل من السنة، وبعض علماء الطبيعة يعزون جودة الهواء إلى كميات الأحماض التى تصب فى القناة عن طريق صرف المرفوضات، لكنى لا أستطيع ذكر السبب الذى بنوا عليه ذلك. كما أنه من الملاحظ أيضا أن الرائحة الكريهة لا تمتد إلى أبعد من حجرات المنازل الخلفية الواقعة بالقرب من القناة.

إننى لا أجد سببا كافيا لأبنى عليه الافتراض القائل إن وباء الطاعون يندلع دائما من مصر، ولا يأتى من بعض أجزاء تركيا. وهناك قول شائع بين الناس وهو أن وباء الطاعون الذى جاء من الصعيد كان أشد فتكا، لكن عندما تحريت بإصرار حول الوقت التى أتى الوباء فيه من هناك، لم يستطع أحد أن يدلنى، ولما كان بعض الأوروبيين يسمعون ذلك الادعاء على الدوام، فقد رددوا نفس المقولة دون أن يكونوا قادرين على إثباتها. وكل ذلك يقوم على السماع،ومن هؤلاء الذين سمعت منهم ذلك، لا يظهر منهم أناس مؤهلون لإعطاء هذه الملاحظات، ومن ناحية أخرى فإن على المرء أن يفترض أنه يوجد أحيانا بعض الحقائق فى مثل تلك الأقاويل المتوارثة. لكن بمرور

الوقت عندما تتجرد من كل الحقائق التى قد تساعدنا فى الكشف عنها، ومن ثم يجب ألا نعول عليها كثيرا. ومن هنا تظهر مسألة عما إذا كان هذا القول الشائع قديم قدم وباء الطاعون الذى لا ينسى والذى اجتاح مدينة أثينا والذى قيل إن مصدره صعيد مصر[1].

وخلال الاثنى عشر عاما التى أقمت فيها فى هذا البلد، والتى تبدأ من الثالث عشر من يناير عام ١٧٧٠ حتى السادس والعشرين من الشهر ذاته عام ١٧٨٢، اندلع وباء الطاعون ثلاث مرات[2]: فعند وصولى إلى الإسكندرية كانت هناك بعض حالات هذا المرض، وبعدها انتشر بسرعة، وأصبح شديد الوقع فى بعض المناطق مثل رشيد وبعض الأجزاء الأخرى من مصر السفلى، وباستثناء بعض الحالات النادرة جدا لم يصل إلى القاهرة لكى يصبح وباء عاما. وفى العام التالى عام ١٧٧١ جلب بعض المماليك من القسطنطينية هذا الوباء، وظل مندلعا بشدة فى القاهرة الكبرى، كما فى مصر السفلى، وفى بعض مناطق الصعيد. ولما كانت الحرب الروسية قد اندلعت فى ذلك الوقت، ونتج عن ذلك انقطاع كل وسائل الاتصال بين القسطنطينية وأزمير فى أعماق تركيا، فلقد ظل وباء الطاعون بعيدا عن هذا البلد (مصر) تماما طوال تلك الفترة، ولم يظهر فى

(١) يقصد الوباء الذى حدث فى أثينا فى القرن الخامس ق. م والذى وصفه ثوكوديديس انظر: كتابى الإغريق تاريخهم وحضارتهم سنة ١٩٩٤ ص٢٥٦ - ٢٥٧ (المترجم).

(٢) تختلف تواريخ الوباء عن التواريخ التى أوردها أندريه ريمون: انظر كتابه: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية: ترجمة زهير الشايب: كتاب روز اليوسف، القاهرة (١٩٧٤) ص٦٠ (المترجم).

القسطنطينية إلا فى حالات قليلة، بينما اجتاح بغداد وبوصرة (Bussora يقصد البصرة) حيث لم يحدث فيها منذ وقت لا يمكن تذكره. وفى عام ١٧٨١ جلب أولا إلى الإسكندرية، ثم إلى رشيد، ومنها إلى القاهرة الكبرى على أيدى بعض اليهود الذين جلبوا صندوقا من الملابس القديمة من أزمير حيث كان يعصف بها بشدة فى ذلك الوقت، ليعرضوها للبيع فى القاهرة الكبرى، وما إن فتح الصندوق عند ثلاثة مراكز للجمارك حتى اندلعت العدوى، وانتشر ليصبح وباء عاما خلال وقت قصير. فهناك حقيقة مؤكدة أن العدوى تظل كامنة داخل هذه الأشياء سنين طويلة، وتنتقل معها إلى أى مكان آخر. وبهذه الطريقة ظل الطاعون مرة أخرى غير فعال فى القاهرة طوال العام. أما حقيقة الأمر فإن تاجرا من دمشق كان عنده عبدتان سوداوان، ماتتا من الطاعون، وبجهالة أغلق على ملابسهما فى صندوق دون أن يعرضها للهواء. وفى نفس الوقت من العام الذى يليه اشترى عبدتين سوداوين غيرهما، وألبسهما هذه الملابس. التى منها التقطتا العدوى على الفور، ومنهما انتشرت فى كل أنحاء البلد.

من واقع هذه الملاحظات فإنى أعتقد أن مصر لا يمكن أن تسمى بأى حال من الأحوال «أم الوباء»، وإننى على ثقة أن تطبيق عزل صارم على المدن الساحلية يساعدنا على إبعاده من البلاد بكل تأكيد كما هو بعيد عن أى جزء من أجزاء أوروبا.

إن أعراض الطاعون شديدة التنوع تماما مثل تأثيراته، وتبدو

العدوى أكثر نشاطا عشية اندلاعها فى البلد، وقليل ممن أصيبوا بها بدا لهم أنهم قد نجوا منها فى بدايتها، إذ إن بعضهم قد يبقى على قيد الحياة لمدة عشرة أو اثنى عشر يوما قبل أن يقضى نحبه، والبعض الآخر يموت خلال ساعات قليلة، كما أن هناك أشخاصا قد يظهرون أصحاء ثم يسقطون موتى فى لحظات دون أن تبدو عليهم أعراض الطاعون إلا بعد الموت. وهذه الأعراض تتمثل فى خراريج تحت الإبط، أو فى الجزء الأملس من البطن، مع ظهور بقع قليلة قرمزية اللون أو جمرات حمراء على الساقين، وعندما تنفجر الدمامل، ويخرج منها كميات كبيرة من القيح، وهنا قد يكون أمام المريض فرصة للشفاء إذا كان جسمه قويا بحيث يقاوم المرض بالقدر الكافى، وتتمثل هذه الحالة بالذات عندما تبدأ العدوى فى الانحسار، ومن الخطأ أن نعتقد أن الشخص الذى أصيب بالطاعون مرة فإنه يكون محصنا بحيث لا يصاب به مرة ثانية، كما يلاحظ فى حالات مرضى الجدرى. وأنا شخصيا أعرف شخصا أصيب به سبع مرات لكنه مات أخيرا بسببه، ولقد أكد لى المستر ورتلى مونتاجيو Wortly Montague(١) أنه أصيب به ثلاث مرات من قبل ويشكو الشخص المصاب به عادة من ارتفاع الحرارة لدرجة لا تطاق، كما لو كان قد ألقى به فى النار. وفى بعض الأحيان يعصف الطاعون بشدة بأحد أحياء المدينة، ثم يتوقف فجأة، ثم يعود للاندلاع بنفس الضراوة فى حى مقابل لم يصب به من قبل، أو أصيب به نفر قليل فيه، وأحيانا

(١) انظر المقدمة ص (؟).

نجد بيتا يفقد كل قاطنيه، بينما فى بيت آخر يخطف الموت واحدا أو اثنين من بين اثنى عشر أو خمسة عشر أو أكثر من سكانه، وأحيانا يموت البعض بين ذراعى آخرين، الذين ينجون سالمين مع الآخرين، فهناك حالات نجد فيها شخصين ينامان فى سرير واحد أحدهما يموت، والآخر ينجو دون أن يصاب، وهناك حقيقة ثابتة بلا شك وهى أنه من الخطورة بمكان أن نلمس أغراضا تخص أمثال هؤلاء الأشخاص لأنه من الصعب، بل من المحال أن يقدم تفسيرا مقنعا لكل ذلك. بالرغم من أنه فى نفس الوقت يتضح أن هناك بعض الأجساد لها استعداد فطرى يجعل بعضها يلتقط المرض أسرع من غيره، لكنى أعتقد أننا سوف نبقى جاهلين على الأقل بقدر كبير إلى الأبد بالخطر الكبير الذى يتطلب منا مراقبته مراقبة دقيق.

وفى مصر يعرفون دائما ويؤكدون متى يتوقف الطاعون لأنه نادرا ما يبقى بعد الرابع والعشرين من شهر يونيو مما أتاح الفرصة لظهور هذه المعتقدات الخرافية، ليس بين الأتراك وحدهم، بل على الأخص بين المسيحين الأفقاط (يقصد الأقباط). فهم يقولون - ويؤكدون بحزم - أن الله يرسل ملائكته لينزل الضربة القاضية ببعض الناس الذين يختارهم كأضحيات، وكل من تصيبه الضربة سوف يلقى حتفه بلا شك، أما هؤلاء الذين تصيبهم العدوى كنوع من التخويف، فإنهم سوف ينجون أو يشفون منها، وعندما يشعر الواحد منهم أنه قد أصيب بالعدوى فإنه يقول: Anna Matrub bel cuppa (أى «أنا

مضروب بالكُبة») أى أنا أصبت بالطاعون. وطبقا لمعتقدات الأقباط فإن ذلك اليوم يناسب عيد ميلاد الملاك ميخائيل. وفيه تسقط نقطة من الماء كالخميرة فى النهر فتسبب فيضانه. ويقولون إن فى هذا اليوم ذاته يأمر ميخائيل بصفته رئيسا للملائكة كافة المكلفين بقبض أرواح الناس بالعودة، ويضيف الأقباط إن أى واحد يظل كامنا فى الظلام بعد ذلك اليوم لابد أن يحلق طائراً أمام القديس يوحنا فى الرابع والعشرين من يونيو.

إن العقل المفكر - بالرغم من إقراره بأن يد الله فى كل شىء - لا يمكن أن يقتنع بأسباب من هذا النوع. لأن الله الذى بيده كل العناصر، وكافة ما فى الطبيعة خاضع لقدرته، قادر على أن يجد ألف وسيلة ليحقق غرضه دون الحاجة إلى إحداث معجزات.

إن السبب الطبيعى لتوقف الوباء فى ذلك الوقت فى مصر هو اشتداد موجة الحر، فدرجة الحرارة فى الترمومتر الفهرانهايتى عادة تتأرجح ما بين ٩٠ و٩٢ فى الظل، وأن كونه هو السبب تظهره الحقيقة التالية: فى عام ١٧٨١ اندلع وباء الطاعون قرب أواسط شهر إبريل، ثم اشتدت حدته وانتشاره حتى كان يموت بسببه فى القاهرة الكبرى فى اليوم الواحد ما يقرب من ألف نسمة، وقرب أواسط شهر مايو تغير الرياح اتجاهها نحو الشرق، مسببة أياما قليلة شديدة الحرارة، وعلى أثرها يتلاشى الوباء، بالرغم من أن الوباء لا يترك البلاد قبل نهاية شهر يونيو، لأن الجو يرطب مرة أخرى، لكنه لا يصل أبدا إلى الحد

الذى كان عليه آنفا، بل يستمر فى الانحسار حتى يتوقف تماما، عندها تثبت حرارة الصيف. وقد لوحظ دائما فى مصر أن حدوث درجة كبيرة من الحرارة حتى ولو لأيام قليلة تُحدث هذا الانحسار لكن فى هذا الفصل (الصيف) يصبح الانحسار، ملحوظا للغاية. ولقد وقع تحت ملاحظتى المباشرة عدة مرات أن السفن التى تأتى من بعض أنحاء تركيا إلى الإسكندرية وعلى متنها أناس كثيرون مصابون بالطاعون بعد هذا الوقت، إلا أن العدوى لا تنتشر، بل حتى الذين يصلون إلى البر وهم يحملون هذا الوباء فإنهم كثيرا ما يبرأون منه.

هذه حقائق يمكن التأكد منها دائما فى القاهرة الكبرى، أو فى أى جزء من مصر. وهى تبدو متناقضة تماما مع التفسير الذى لاحظته عند كثير من الكتاب: وهى أن الطاعون ليس سوى حمى التعفن فى أشد درجاتها، بينما فى حالة حمى التعفن نجد أن شدة الحرارة تساعد على انتشارها أكثر من انحسارها، ولقد وضعت فى اعتبارى هذا التأثير للحرارة الطبيعية، وبناء عليه دار فى خاطرى أحيانا تساؤل عما إذا كانت الحرارة الصناعية بنفس الدرجة التى تسبب حالة من العرق المستمر قد تكون أكثر نفعا لدى هؤلاء الذين انتقلت إليهم عدوى الوباء من جدوى تعاطى العقاقير التى تحدث ارتفاعا فى درجة حرارة الجسم لذات الغرض، وبما أننى لا أدعى لنفسى معرفة بالطب فإنى أترك هذا الأمر ليبت فيه غيرى.

ونادرا ما بدت القسطنطينية قليلة الإصابة (بالطاعون) أو خالية منه

تماما، وليس فى مقدرة سكان القسطنطينية ولا سكان أزمير ولا بقية أجزاء تركيا أن يعرفوا على وجه الدقة متى يتوقف مثلما يعرف سكان مصر، والسبب الأكثر توقعا أن درجات الحرارة فيها لا ترتفع أبدا لا على الدوام ولا بانتظام، وقد تبدو درجة البرودة الشديدة فى هذه المناطق السابقة الذكر أنها ذات قدرة على الحد من شدته (الوباء) لكن بكل تأكيد لا تقضى عليه كما تفعل الحرارة الشديدة فى القاهرة الكبرى، كما أن افتراض أن شدة البرد فى القسطنطينية لها نفس التأثير الذى لشدة الحرارة فى القاهرة هو أمر من الصعب البت فيه.

ويعصف الطاعون فى الغالب بالطبقات الدنيا من الناس، وهناك عدة أسباب يمكن أن نفسر بها ذلك، وفى مقدمتها أنهم أكثر جهلا وإيمانا بالخرافات لأنهم يؤمنون بأن قدر الإنسان محتم ومكتوب على جبينه، ويرون أنه من العبث اتخاذ الحيطة منه. كما أنهم يعانون عامة من نقص فى الملبوسات، ولذا فهم لا يتخوفون من ارتداء ملابس رفاقهم الذين لقوا حتفهم فى التو بسبب هذا الوباء، وإلى جانب ذلك، أنهم يعيشون مكدسين مع بعضهم بعضا، ولذا فإن ذوى السعة منهم أو على الأقل النخبة الحاكمة لا يتأثرون به لأنه لا يعوزهم قماش التيل ولا الملبوسات، وعندما يمرون فى الشوارع يفسح الناس لهم الطريق، ولا تطأ قدم مريض بيوتهم، وبعضهم ليس شديد الاعتقاد بالخرافات، ومن ثم فهم أشد حرصا، بل أحيانا يفرضون على أنفسهم نوعا من العزلة سواء بقوا فى بيوتهم أم انتقلوا إلى الريف، وبعضهم يتشدد فى ذلك ولا يهمهم أن ينظر إليهم مواطنوهم الأكثر إيمانا بالخزعبلات

بأنهم «متفرنجون» أى يقلدون الأوربيين، ولكن إذا دخلت العدوى بيوتهم فهم فى هذه الحالة يكونون أقل عرضة للإصابة بها من عامة الطبقات الفقيرة. وإنى لأذكر حادثة وقعت عام ١٧٧١ عندما مات جميع من فى بيت شخصية كبيرة من جراء الطاعون لأن سيد البيت أتى إليه ببعض المماليك من القسطنطينية.

ولقد افترض بعض الكتاب - دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التحرى - أن الأوروبيين الذين يقطنون تركيا ليسوا عرضة للإصابة بالطاعون مثل سائر أهالى البلاد، غير أنه لم يدر بخلد هؤلاء أنه حتى الفقراء منهم (أى الأوروبيون) يتخذون كل حيطة ممكنه لتجنبه، أما القادرون فهم بطبيعتهم يمارسون عزلا صارما، وإنى لأتذكر بعض الحالات الصارخة التى فقد فيها العديد منهم حياته بسبب إهمال قليل. كما أنه على أى أساس نتوقع أن يكون الأوروبيون أقل عرضة للعدوى؟ إذ إنه من المعروف أن الطاعون يعصف بشدة ببعض أجزاء أوروبا إذا ما دخلها، أكثر مما يحدث فى تركيا.

ولقد لوحظ فى تركيا - خاصة فى مصر - أن الأفراد الذين تخطوا سن السبعين فصاعدا لا يكونون معرضين للعدوى بنفس الدرجة، أما كبار السن فليسوا معرضين لها على الإطلاق، أما الأصحاء شديدى القوة فهم الذين يبدون دائما معرضين للإصابة.

كما تقوم جماعة« فراير دى بروجاندا فيدى» Friars de Propaganda Fide (*) فى القاهرة الكبرى أيضا بممارسة العزل، غير أنهم

(*) أى جماعة رهبان نشر العقيدة (المترجم).

دائما يعينون اثنين منهم لزيارة المرضى، ويقدمون لمن يتوسل إليهم من المحتضرين دهانا قويا، وقلما يموت أحد الزائرين بسبب الطاعون، مما يجعلهم يبدون كما لو كانوا ينجون منه بمعجزة، أما الحيطة التى يأخذونها فهى أنهم يشربون كميات كبيرة من البراندى بقدر ما يستطيعون، بل أحيانا أكثر مما يستطيعون دون أن يلحقوا بجسمهم أى أذى. وهناك طبيب بندقى يقطن القاهرة الكبرى منذ زمن بعيد، ولم يمارس فكرة العزل، بل على العكس كان يقوم بزيارة مرضى الطاعون، ولم يحدث أن أصيب به على الإطلاق، وحكايته مشابهة: وهو أنه يتناول كميات كبيرة من البراندى حتى إنه قلما لا يكون تحت تأثيره، وربما كان هدفه هو الإكثار من هطول العرق الذى يحدثه تناول الكحول، والذى يبدو أن البراندى، يمده فى هذه الحالة بما قد تحدثه درجة عالية من الحرارة، أما الشخص المتخوف الذى هو فى حالة خوف ورهبة دائمين، فإنه يصبح أكثر عرضة للإصابة بالمرض، فمن المعروف أن الخوف يحدث العكس، ويمنع أو يعيق هطول العرق.

ملحوظة: بعد أن فرغت من كتابة الصفحات السابقة تكرم علىّ صديق بإهدائى مجلدا من مؤلف يدعى «ذكريات المدينة» City Re-membrance والذى وجدت فيه وصفا مطولا لوباء الطاعون الذى اجتاح لندن خلال القرن المنصرم، وكانت كل الافتراضات المختلفة فيه تدور حول إثبات أن تلوث الهواء هو مصدر هذا الوباء، وفى نفس الوقت أنه جاء من هولندا، وفى مناسبة أخرى قيل إن كافة الأشخاص

الذين نجوا منه هم الذين حبسوا أنفسهم تماما، وقطعوا كل اتصال لهم بالمصابين: **سؤال** ألم يتنفسوا جميعا ويعيشوا فى نفس الهواء؟ ولقد أمر الحاكم بحبس، وفرض الحراسة على أناس كثيرين داخل منازلهم لأنهم كانوا مصابين، إلا أن هذا لم يعد بفائدة عليهم، بل كان الحال أسوأ للذين كانوا معهم.

وهناك أيضا تجارب عديدة أجريت لكى تصحح القول بافتراض تلوث الهواء، وثبت عدم وجود أى تأثير. ومنها إضرام نيران كبيرة فى كل مكان من الشوارع وأماكن الخلاء، إلا أن ذلك يبدو أمرا مثيرا للسخرية تماما كإقدامنا على تفريغ بضعة براميل من أى محلول فى البحر بقصد تطهير مساحة كبيرة من مسطحه لافتراض أنه ملوث. فيكف يمكن للمرء أن يفترض أن مثل هذه المحاولة الفاشلة تقدر على تطهير نسبة كبيرة من الهواء الذى هو بكل تأكيد فى حالة حركة دائمة بفعل الريح ولا يستقر على حاله إلا دقائق معدودة؟.

ولقد افترض أيضا أن الطاعون ليس إلا حالة حمى متعفنة فى أشد مراحلها، وإن صح ذلك فإن حمى العفونة تكون عادة هى بوادر الطاعون الذى إذا كان بدرجة قليلة، فإنه يكون من الحالة الأولى، ولن يستطيع أحد أن ينجو من تأثير هذه الحمى حتى لو سجن نفسه، كما أن أحدا لم يلاحظ أن هذا النوع من الحمى كان منتشرا فى تركيا أكثر من أى وقت آخر وذلك قبل اندلاع الوباء.

إن الأراضى المنخفضة والمستنقعات ـ خاصة فى الطقس الحار ـ وهى فى العادة مناطق غير صحية، كما نرى فى باتافيا[1]، والإسكندرية، وبعض مناطق قبرص..الخ. وهنا يمكن أن يكون الهواء

(١) ويقصد بها هولندا ـ الأراضى الواطئة. (المترجم).

فاسدا أو مشبعا بالعفن وبالأشياء المهلكة، التى نتنفسها، لكن لماذا يصبح فاسدا بهذه الدرجة حتى إنه يبقى دائما على نفس حاله؟ إن السبب هو أن مصدر التلوث لم يقض عليه نهائيا، بل يوجد عملية تزويد مستمرة للمواد العفنة فى نفس الموقع. إننا أحيانا نلاحظ أن الهواء عادة يكون مختلفا، ولا أثر للتلوث فيه لو تصادف وجود تل أو مكان مرتفع على مسافة قريبة من مثل هذه الأماكن، وهذا واضح على وجه الخصوص وبشكل ملحوظ فى (ضاحية) بيلان(؟) بالقرب من الإسكندرية، ويمكن ملاحظته فى أماكن أخرى أكثر قربا كما كان الحال قديما فى تريستى، قبل ردم المستنقعات الواطئة فيها، ومن ثم فإن المدينة الجديدة الواقعة فى الوادى كانت تعد شديدة التلوث بالرغم من أن الجزء المجاور لها أعلى التل على النقيض من ذلك تماما، ولكن فى مثل هذه الأماكن غير الصحية - كما سبق أن لاحظنا - لن يكون هناك جدوى أن يحبس المرء نفسه فى بيته. لأن المرض المتسبب من فعل الهواء الفاسد سوف يجد طريقه إليه، ويهاجم هؤلاء كما يهاجم الآخرين.

وقد يؤدى تغير الطقس وخروجه عن المألوف فى بلادنا كالشتاء المعتدل، أو الرطب الذى بسببه يصبح الهواء مشبعا بالبخار الضار - قد يؤدى إلى اندلاع مرض وبائى، وإلا اعتبر مناخا صحيا جدا، غير أن هذا الافتراض يختفى بمجرد أن تتوقف مصادر المواد الضارة المسببة لحدوثه، إلا أنه خلال حدوثه (مثل هذا المرض الوبائى)

تصبح عملية عزل الإنسان فى البيت غير ذات جدوى بالرغم من أن كل وسائل الحيطة تكون واجبة. وبما أن الظروف قد تختلف فى حالة الطاعون فإن مسبباته أيضا لابد أن تكون مختلفة.

إن وصف الطاعون الأخير فى لندن كما جاء فى «ذكريات المدينة» لا يجعلنى على الإطلاق أغير نظريتى. إن الطاعون - فى أغلب الظن - خاصة عندما يجىء من بلاد أخرى - لا يكون بسبب فساد الهواء بالرغم من أنه من الواضح أن ثمة حالة من الهواء قد تساعد على بقائه، وحالة أخرى قد تساعد على قمعه، وإلا كنا مجبرين على الاعتقاد بأنه لن يتوقف فى أى فصل من فصول السنة إذا ما ظهر فى مكان ما، وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال فى تأييد أو معارضة هذا الرأى. وقد يتوقف الوباء من تلقاء نفسه بعد أن يكون قد قضى على جميع من فى أجسامهم قابلية الإصابة بعدواه. وكما أظهرت التجربة أن الإصابة به لا تحدث فى مصر فى أوقات معينة من السنة، مما قد يكون فى صالح الفكرة الأولى: وهى أن الهواء لابد أن يكون فى حالة تساعد على تناميه، وهنا يبرز سؤال من تلقاء نفسه: كيف نشأ الطاعون فى الأصل وما هى الأسباب الطبيعية لتكونه؟

إن الغموض يلف الإجابة عن هذين السؤالين، إذ يبدو من المحال أن نجيب عنهما بمجرد عرض الحقائق. كذلك ليس لدينا سجلات دقيقة ومؤكدة عن هذه العصور. ولا فى إمكاننا أن نقول متى حدث ظهوره لأول مرة فى العالم، لكن ما إن ظهر حتى أصبح واضحا أنه ينمو عن

طريق الاختلاط والإهمال المتسبب عن عدم الاهتمام اللازم بالأشياء التى تبقى على العدوى. وهناك مجال على أية حال لبعض التخمينات المحتملة: مثل تضافر عدة عوامل مختلفة قد يكون ضروريا، والتى ربما لا تحدث بنفس الطريقة ذاتها خلال عصر يمتد لآلاف السنين: وهناك أيضا احتمال وجود بلدان قد تجعلها ظروفها غير قادرة على إحداث هذا التضافر بالرغم من قابليتها للعدوى عندما تنتقل إليها. ونرى ذلك فى كل بلد من البلدان بدرجات متفاوتة، فقد اندلع وباء قاتل بين الرومان قضى على الآلاف منهم بسبب العطش. وكذلك ظهرت أمراض أخرى كانت أيضا غير معروفة من قبل أو فى ذلك الحين وقضت على الكثيرين ثم اختفت مرة أخرى لأن توليفة الظروف المسببة التى كانت من وراء أسباب الأمراض لم تحدث مرة أخرى تماما بنفس الحالة التى كانت عليها، تماما مثل وباء العرق فى إنجلترا، وبعض البلدان الأخرى، وهكذا ظهرت فى الأصل أمراض الجدرى، والحصباء، وما شابهها من أوبئة معدية، ولا تزال تظهر فى بلدان حيث توجد الظروف المهيئة لظهورها، وتستمر عن طريق انتشار العدوى وغير ذلك. وعلى ذلك فقد تُحدث فى المستقبل وباء ما ليس لدينا أية فكرة عنه فى الوقت الراهن. دون أن نعلل ذلك بالمعجزات التى لا يقدر عليها إلا الله إذا ما شاء أن يحدث تغييرا فى المسار العام للطبيعة التى خلقها بنفسه، أما عن نفسى فلا أجد سببا يجعلنى أتشكك فى أنه لو أمكن لنا أن نجعل كل الأمم والأفراد فى الأمم يدركون تماما أهمية العزل الصارم وضرورة تدمير كل ما يتعلق بالناس والأشخاص المصابين بالطاعون، فلو فعلنا ذلك فإن هذا

الوباء اللعين، وكذلك ما على شاكلته من الأوبئة المعدية، سوف تختفى من العالم، وفى نفس الوقت فأنا أنظر إليه كأمر يختص بقضاء الله وقدره وهذا أمر يبدو ممكنا.

وباختصار فإن مجال التأمل واسع جدا حتى إننا قد نجد أنفسنا وبسهولة قد ضعنا فيه، إذا ما توغلنا فى أعماقه، ولذلك فإنى سوف أتوقف حتى لا تحذرنى إحدى حواسى بألا أذهب أبعد من مجالى، فمثلما فعل الرسام، فعل صانع الأحذية، عندما بدأ ينتقد بعض جوانب لوحته إلى جانب نقده لحذائه، لأنى أترك الكلمة الأخيرة لأولئك الذين يعتبرون علم الفيزياء حرفتهم، وأضع أمامهم أفكارى دون تشذيب أو تنميق حتى يقرروا إلى أى حد يمكن اعتبارها أساسا تُبنى عليها نظريات.

الفصل الثالث

ملاحظات على فيضان النيل ونوعية مياهه

النيل هو كنز مصر المدخر، فبدونه يصبح ذلك البلد صحراء جرداء بدرجة لا يمكن تخيلها، وإذا أردنا أن نقنع أنفسنا فلنذهب لنرى بعض أجزاء ذلك البلد التى لا يرويها النيل بسبب ارتفاعها. وبدونه أيضا يصبح هذا البلد غير مأهول بالسكان، فإليه يعزى رخاؤه، وبقاء الإنسان والحيوان فيه، وفى نفس الوقت فإن النيل هو أنسب قناة اتصال من أقصى البلاد إلى أقصاها، إذ إنه صالح لاستقبال السفن ذات الحمولة الكبيرة دون أن يعترضها شىء، من مصبه (عند رشيد ودمياط) حتى الجنادل قرب أسوان، بل إلى ما بعد هذه الجنادل (التى لا يمكن أن تكون شلالات) على طول أرض النوبة التركية، وحسب التقديرات، فإنه يستمر فى ذلك حتى سنار وما بعدها، وعلينا ألا نقلل من أهمية الاتصال النهرى بالنسبة لنقل السلع من البحر المتوسط إلى العاصمة، وكذلك نقل منتجات الصعيد إليها. كما أن دوره لا يقل أهمية فى نقل السكان الذين يعتمدون فى انتقالاتهم على النهر. فقد قمت بنفسى برحلات ممتعة على صفحته، رغم أنه لم يكن كذلك فى الأصل(١) وقلما نجد تجمعا سكانيا فى هذا البلد يقع فى منأى عنه كثيرا حتى فى مصر السفلى

---

(١) يتعرض المسافر فى كافة الولايات التركية خاصة ولايات آسيا التى هى قليلة السكان إلى العديد من المضايقات. إذ إنه من الضرورى أن يحمل الإنسان معه كل ما يحتاج إليه من الزاد والزواد، وكذلك الأدوات الخاصة بتجهيز طعامه، إلى جانب خيمة صغيرة يلجأ إليها ليلا خاصة أثناء تقلب الطقس، إذ لا توجد فنادق، اللهم إلا بعض الحانات هنا وهناك، التى هى فى الحقيقة ليست سوى غرف خاوية، بل إن بعضها يظهر فى بعض الأحيان فى درجة متدنية، وتمتلئ بكافة الحشرات، ولو حدث أن ألم بالمسافر مرض فهناك يكتمل حظه التعس خاصة فى =

= المناطق التى قد لا يقابل فيها أحدا لعدة أيام. وإلى ذلك نضيف أن المسافر يغامر عندما يسلم نفسه لمرشدين لا يعرف شيئا من لغتهم التى يتكلمون لها، وبذلك يكون تحت رحمتهم. وبالرغم من أننى لا أريد أن أسلى نفسى بذكر مغامراتى الخاصة إلا أننى أختار مثالا من هذه الرحلة، سوف أروى تفاصيل إحداها التى قمت بها فى جزيرة قبرص، والتى تبدو لأول وهلة ضرباً من ضروب الأساطير، ولكنها حقيقة كاملة. فعندما ذهبت إلى تركيا لأول مرة، رسوت عند هذه الجزيرة وأجبرت على البقاء فيها حوالى ستة أسابيع فى مكان غير صحى تماما يسمى لارناكا حيث يقيم فيه أغلب الأوروبيين. ولأنى لم أوفق فى الحصول على إذن مرور إلى الأسكندرية، فقد تحملت بالكاد قضاء أربع ليال فيها قبل أن تداهمنى حمى وقشعريرة (ملاريا) متقطعة، وتمنيت أن أغادر هذا المكان التعس بأسرع ما يمكن، خاصة بعد أن أصيب القنصل الإنجليزى الذى كنت أقيم معه - وكذلك كاتبه - بنفس الحمى، فبعثت بمرسال إلى مكان يسمى ليماسول يبعد حوالى خمسة عشر فرسخا إلى الغرب من لارناكا حيث علمت أن سفينة كانت فى طريقها إلى الإسكندرية وذلك لكى يحاول أن يحجز لى مكانا عليها. وفى اليوم التالى وصل من هناك رجل يونانى ومعه زوجان من البغال: واحد له والآخر لى، وتصادف أن كان ذلك اليوم الذى تعترينى فيه نوبة القشعريرة، ولما لم يكن فى مقدورى إغراء المرشد بالانتظار ليوم آخر، كما أننى كنت متلهفا على مغادرة ذلك المكان، فقد أغمضت عينىَّ عن المرض، وتحاملت على نفسى، وحزمت أمتعتى بقدر ما استطيع وكذلك بعض الزاد للرحلة، ولما كان مظهر الرجل يميل إلى الإجرام، فقد حشوت زوجين من المسدسات أمام عينيه، ووضعتهما فى حزامى لأرية أننى أحرس نفسى بنفسى، وعلى أية حال فإن ملابسات الظروف التى توالت جعلتهما عديمى الفائدة لولا أن الله تولانى برعايته، وبعد أن أعددنا لكل شىء عدته غادرنا المكان فى غسق الليل، وما إن سرنا ميلا واحدا حتى راحت السماء تمطر مدرارا يصحبها ومضات من البرق وهدير الرعد، واستمرت على ذلك الحال كذلك طوال أغلب الليل. ولما كنت شديد الاهتمام أن أقى نفسى من وابل المطر المنهمر فقد وقيت نفسى منه جيدا بفضل ثيابى التركية، ووضعت فوق رأسى لحافا كنت قد فرشته على سرج البغل الذى اركبه، وسرت كالأعمى. وصرت تحت رحمة مرشدى تماما، وبعد أن سرنا ثلاث أو أربع ليالٍ فى واد مهجور، اشتم أحد اليونانيين الذين كانوا يحرسون متاعى شيئا من الزاد الخاص بى، رائحة زجاجة كحول قوية، فراح يشرب منها دون استئذان حتى أصبح فى حالة لا يستطيع فيها أن يرى البغل الذى فى =

= حراسته، فانتهز البغل الفرصة ليستدير عائدا إلى المكان الذى جاء منه ومعه كل الحمولة، وحاول المرشد الآخر أن يلحق بهذا البغل ولذلك تركنى ولما كنت قد تدثرت تماما بالغطاء، فلم أدرك ما حدث إلا بعد فوات الأوان، عندما لم أعد أسمع صوت أحد يتبعنى، فأزحت عن وجهى الغطاء حيث كانت الدنيا من حولى شديدة الظلام إلا من ومضات البرق، ولم يكن فى مقدورى أن أتبين ما هو أمامى سوى مسافة يارده واحدة، ولما كنت لا أدرى ماذا أفعل فقد ترجلت وربطت بغلى من لجامه بأحدى الشجيرات القريبة من المدق (إذ لم يكن هناك طريق واضح)، واستدرت عائدا على أمل العثور على أحد المرشدين، ولما تمالكت نفسى، ورأيت أنه من غير المحتمل أن أوفق فى ذلك، عدت إلى المكان الذى تركت فيه بغلى، فوجدت أنه قد جفل وانطلق مسرعا بعيدا، ولم يكن فى مقدورى حيال ذلك سوى البقاء وحدى فى ذلك المكان المهجور وفى بلد غريب، ولمحت فى نفس المكان الذى كنت قابعا فيه أنتظر طلوع النهار، من خلال ضوء البرق رجلا قادما نحوى وهو يمتطى حمارا، وتبينت انه ليس واحدا من المرشدين الاثنين الخاصين بى، وما أن اقترب منى حتى رطن شيئا باليونانية، ولما أدرك أننى لا أفهم منه شيئا تركنى لحالى وسار فى طريقه وأخيرا بعد الأنتظار المتلهف، عاد أحد المرشدين، غير أن هذا الرجل لم يكن فى مقدوره أن ينطق حرفا واحدا بالأيطالية بعكس المرشد الآخر، ولما كنت لا أعرف اليونانية، فلم يكن فى مقدورى أن أستعلم منه عما حدث لمتاعى، وكل ما فعله هو أنه سألنى عن طريق الأشارات أين ذهب بغلى، فأشرت إلى ناحية الطريق الذى جرى إليه، عندئذ ترجل المسكين من فوق بغله، وأركبنى أياه بدلا منه، وسار إلى جانبى فى الوحل العميق، بينما استمر هطول المطر، وبعد برهة لمحنا بغلى من خلال ومضات البرق وهو يسير أمامنا فى المدق، وبذل الرجل جهدا كبيرا حتى أمسك به.. وقرب منتصف الليل وصلنا إلى مكان أشبه بالقرية، حيث طرقنا بابا، ولقد غمرنى السرور لأنه أول بيت ادخله، غير أن بابه كان مفتوحا، ثم تبين لى أنه ليس سوى سقيفة مفتوحة من الجانب الآخر. ولذا كان تيار الهواء البارد شديدا، ووجدنا أناسا مستلقين على الأرض حول نار يستدفئون بها، وكلما خمدت غذوها بالوقود حتى تزيد اشتعالا. ورحت أجفف ثيابى المبتلة دون أن أعير القشعريرة أى اهتمام، ثم أكلت وشربت من الزاد الذى معى وفى وجودهم. غير أننى لم يكن فى مقدورى أن اتبادل كلمة واحدة مع أحد منهم، وبعد برهة أشار إلىّ صاحب المكان أن أتبعه، ففعلت، فقادنى إلى بناء خلفى شبيه بالحجرة، واعطانى معطفا كبيرا لأرتديه، وأرانى سريرا فرش عليه =

غطاء، ومعطف اخر يقوم مقام الوسادة لكى أستريح قليلا عليه. ولما كان التعب قد نال منى مبلغه، فقد غمرنى السرور أن أجد مثل ذلك المأوى الجيد، لكن سرعان ما تبين لى أنه ليس سوى صندوق كبير تغطيه ملاءة مفروشة، ونمت بعمق حتى الثامنة من صباح اليوم التالى عندما جاء مرشدى وأشار إلىّ لأتابع السير، وكافأته مضيفى الكريم بقدر ما استطعت، وتابعت رحلتى دون أن أتمكن من الاستعلام عن متاعى. وكان ذلك اليوم قارس البرد، إذ كان الثالث من يناير (عام ١٧٧٠)، وما كنا نظنه مطرا هطل فى الوادى فى الليلة السابقة، لم يكن سوى ثلوجا سقطت على جبل أولمبس(؟) والتلال الأخرى. وكان البحر أيضا هائجا بسبب عاصفة هبت فى الليل، بما سبب لنا بعض المضايقات فيما بعد، لأنه على بعد ثلاثة أميال من القرية العالية هبط الطريق فى اتجاه ساحل البحر، ولما كان ساحل الجزيرة منحدرا انحدارا شديدا كالحائط، فقد كانت الأمواج تتجه بشدة ودون توقف نحو الساحل، حتى أن الماء كان يلحق بأرجلنا، وفى بعض الأحيان كاد أن يصل إلى بطون بغالنا، ولما كان هذا الحال قد استمر من الصباح حتى الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم، فقد شعرت بالضياع، إذ بدا لى أننى غير قادر على تحمل البلل والبرد، على أى حال عندما وصلنا إلى ساحل البحر فى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، استجمعت قواى بهدف أن أدفىء نفسى بالمشى حتى أرى الأمواج بوضوح ولكى افعل ذلك، ترجلت وسرت بقدر ما أستطيع، لكن سرعان ما تبين لى أننى لم أضع فى الحسبان حالتى الصحية المتردية، فبعد أن سرت مائتى أو ثلاثمائة ياردة، وجدت نفسى غير قادر على متابعة المشى، واضطر المرشد إلى معاونتى لامتطى بغلى مرة أخرى، حتى وصلنا أخيرا قرب الساعة التاسعة ليلا إلى بيت يونانى كان يتولى مهمة القنصل الانجليزى فى ليماسول، ولما كان الرجل يعرف قليلا من الأيطالية، فقد استطعت لأول مرة أن استعلم عن متاعى، الذى أكد لى أنه لن يضيع، وأنه سوف يصل فى اليوم التالى، وثبت صدقه، وأرانى مضيفى حجرة بها سرير مزدوج نظيف، وتناولت بعضا من الشاى، إذ كان لدى «براد» فطلبت منه أن يغلى لى بعض الماء وجهزت الشاى بأن لففت بعضا منه فى قطعة من التيل ووضعتها فى البراد، وقد أنعشنى ذلك كثيرا، بالرغم من أن نوبة القشعريرة انتابتنى أثناء تلك الليلة بالذات، ولكن على غير ما توقعت كانت أشد وطأة بكثير، وكان فى مقدورى أن أستمتع بالراحة لو أن سريرى - بالرغم من كونه نظيفا - لم يكن مليئا بالبراغيث. وكان علىّ أن انتظر فى هذا المكان ستة ليال حتى تقلع السفينة. كانت نوبات القشعريرة تنتابنى تقريبا يوما بعد يوم، وأخيرا جاء وقت

= الاقلاع، ووصلنا الاسكندرية بعد خمسة أيام، وفى البحر ذهبت عنى القشعريرة لكنى لم اشفى منها لأننى عانيت منها بعد ذلك. وعندما وصلت كان فى الاسكندرية أعراض الطاعون الذى انتشر بعد ذلك، وبعد تخطى عقبات كثيرة، وصلت إلى القاهرة الكبرى متعجلا.

وعندما غادرت قبرص أعطانى القنصل الانجليزى فى لارناكا - المستر جون بالدوين(١) توصية لرجل مهذب من تونس اسمه المستر ماريون كان يقوم مقام القنصل الانجليزى فى الاسكندرية، ولكن لما كان هذا الرجل على خلاف دائم مع الاوروبيين الآخرين فقد تبين لى أن تزكيته ليس لها فائدة، ولم يكن عندى من الأسباب ما جعلنى أشكره على جمائله التى اسداها إلى، فكل ما فعله هو أنه أوجد لى محل اقامة عند رجل ايطالى آخر، اجزلت له العطاء ليزيد من عنايته بى، ولما كنت أشعر بالضعف والمس أعراض وباء الطاعون تتزايد، فقد كنت متلهفا على مغادرة المكان بأسرع ما يمكن، ولذا طلبت من المستر ماريون أن يجد لى رجلا من الانكشارية يلم بالايطالية ليتولى أمرى مقابل مبلغ معين شاملا أجر المركب والسفر إلى القاهرة، فوعد بذلك. ولم أمكث فيها سوى يوما واحدا لأزور أعظم الآثار القديمة فيها، وغادرت الاسكندرية فى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى فى طريقى رلى رشيد على متن قارب مكشوف، وسرعان ما تبين لى أن الانكشارى الذى زودنى به المستر ماريون لا يعرف من الأيطالية سوى كلمة أو كلمتين دارجتين، ولما كانت الريح شديدة، فقد سرنا بصعوبة بحزاء الساحل حتى وصلنا إلى خليج أبى قير عصر ذلك اليوم، وهنا تحولت الرياح إلى عاصفة، فأسرعت جميع السفن للاحتماء بالخليج وكانت كثيرة، والقت مراسيها لقضاء الليل، ولما كان الجو باردا وقاسيا، فقد اشرت إلى بعض البيوت أو الاكواخ، فى أبى قير، وجعلت الانكشارى يفهم أننى أرغب فى أن انام فى أحداها، ولم أفهم ما قاله لى بالايطالية سوى قوله Cattivi Genti اى اناس أشقياء، ثم اشار إلى القارب وطلب منى - ايضا بالاشارة - أن أقضى الليل فيه، بل أنه أقام ما يشبه الخيمة مستخدما قلاع القارب فوق راسى، وكان الليل عاصفا، وانتابتنى نوبة القشعريرة ومن ثم قضيت ليلة بلا راحة، وقرب الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى، عاد الجو إلى الاعتدال، وبدأنا فى الأبحار فى صحبة خمسة وستين قاربا كانت راسية قاصدين مصب النيل الذى كان يقع على الناحية الأخرى من الخليج، وهو متسع حتى أننا عندما وصلنا إلى وسطه لم نعد نرى أرضا على الجانب الآخر، وكانت شواطئه منبسطة، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا، إذ =

= بدأت أشجار النخيل الواقعة بعد رشيد فى الظهور كما لو كانت تبرز من الماء، ثم أخذ الانكشارى بعض الماء من البحر وكان على ما يبدو عذباوهذا يعنى أننا على مقربة من مصب النيل، ودلفنا إليه قرب الساعة الثالثة بعد الظهر، وأبحرنا فى اتجاه رشيد التى تبعد عن المصب حوالى ستة أميال، ولما كان المسيو ماريون لم يعطينى أى تزكية لأى من الأوروبيين القاطنين هناك، فقد شعرت بالضياع، لمن أتوجه للتعريف بنفسى، وبعد الجهد الذى بذلته فى البحث عن أحدهم، أشار الانكشارى إلى رجل كان يسير على شاطىء النيل صائحا: القنصل! «فهرولت إليه، ففى الظروف التى كنت عليها كان السرور سيغمرنى حتى لو قابلت كلبا أوروبيا! ولما اقتربت منه والقيت عليه التحية بالإيطالية سألنى عن المكان الذى جئت منه والمكان الذى أنا ذاهب إليه، وبعد أن أجبته سألنى عما إذا كان لدى توصية من أحد الأوروبيين فأجبت بالنفى، وسرعان ما تفهم الوضع عندما ذكرت له اسم الشخص الذى زكيت له فى الأسكندرية، وبالرغم من ذلك دعانى بطريقة ودودة، ورحب بى بتقديم القهوة طبقا لعادات البلاد، بينما قام الانكشارى بنقل متاعى إلى ظهر قارب اخر كان على وشك التحرك ليلا إلى القاهرة. واكترى لى كابينة لأنام فيها. ولما كان صديقى الأوروبى الجديد قد تركنى بمفردى لبعض الوقت حين أقبل المساء، إلا أننى أحسست أننى لست فى فندق، وبالرغم من شعورى بالضعف والفتور تحاملت على نفسى واتجهت نحو القارب حيث حملت إليه امتعتى بقصد الراحة، ولما اقتربت منه وجدت أحد الأوربيين يسير هناك، وعندما أحس نيتى فى النوم فى القارب دعانى إلى سكنه مرة أخرى حيث قدم لى شقة بها سرير مريح وذلك فى مقر جمعية: آباء الأرض المقدسة Pa-tres de terra santa حيث كان يقيم هو نفسه هناك.

كان الطاعون قد اندلع فى الاسكندرية، وكان الناس خائفين منى فى البداية لانهم ظنوا أننى مصاب به خشية ان أنقل العدوى إليهم، ولما تأكدوا منى أننى لم أكن كذلك رحبوا بى ترحيبا من القلب، وعاملونى بكرم شديد طول ستة أيام، حتى حولت الريح اتجاهها، وسمحت لنا أن نبحر فى النهر، وخلال الرحلة أصبحت صديقا حميما لهذا السيد وكان اسمه الساندرو دى سينو Alessandro de Senno وكان من ابناء بيساركو Pisarco فى أقليم استريا Is-tria وقد فاجأته بالزيارة بعد عودتى من مصر (فى بلده)، والرحلة من رشيد إلى القاهرة الكبرى عن طريق النيل تستغرق عادة ثلاثة أيام بأى رياح ممكنة، ولكن ليكتمل سوء حظى لم =

= أصل إليها إلا بعد ثمانية عشر يوما(؟) وفى فصل الشتاء تهطل الامطار بشدة على المناطق الشمالية من الدلتا، وهكذا كان الحال (عندما وصلت)، وقام الانكشارى لكى ينقذ ما يمكن انقاذه، بالانتقال إلى قارب عتيق كان محصنا من سقوط الماء من سقفه فوق رأسى، ومن ثم تسلل ماء المطر الشديد إلى كل بقعة، حتى لم يعد فى جزء لم يبتل بالرغم من أننى كنت ملتفا بالغطاء، وبدأ سريرى يتحرك من تحتى حتى تمكنت من لفه بالحبال، ومن ثم، بدأ الماء يتصرف من تحته، وكان لذلك جدوى إلى حد ما. ولقد حصل المرشد على غذاء كاف لى لرحلة تستغرق خمسة او ستة ايام مثل الخبز والارز، الخ. ولكن لما إستغرقت الرحلة وقتا أطول أصاب العطن الخبز بدرجات متفاوتة، واستهلكنا الدجاج، ولذا نجح فى الحصول على بعض خبز الارز من العرب، ولكن اتضح أنه لا طعم له على الاطلاق، وكان لونه اسود ولا يقل عن الفحم فى قذارته، وبعد مشقة حصل لنا على المزيد من الدجاج ولكن بكميات قليلة، ولذا فان القشعريرة عادت إلىّ، وكثيرا ما كنا نهجع إلى قرية حقيرة، أو نلقى المرسى وسط النهر لمدة اربعة أو خمسة او ستة ايام كاملة، دون ان يحاول احد ان يتصرف أو يقدح ذهنه، بل كانوا دائما يصيحون: «من الله.. مقدر» أى أن ما يحدث هو من عند الله ومكتوب فى كتاب القدر، كل ذلك كان يثير فى الازعاج والملل. غير أننى لم أكن أقدر على نطق كلمة واحدة فوق ظهر السفينة لأنى لم اكن أفهم العربية. وحدث ذات مرة - بينما كنا نرسو قبالة قرية -أن طلب منى الانكشارى عن طريق الاشارة أن أحشو كل أسلحتى النارية وهى عبارة عن بندقيتين وزوج من المسدسات، ففعلت دون أن أفهم السبب. وأخيرا وصلنا قبالة بولاق ميناء القاهرة الكبرى، وأثناء دخول السفينة الميناء، ارتطمت بشدة بتل من الرمل وسط النهر وفشلت كل مجهودات البحارة فى تعويمها، وهنا فقدت كل صبرى، وأشرت إلى بعض القوارب التى كانت على مرأى منى حتى أخذنى أحدهم إلى الشاطىء. ومن هناك ركبت حمارا قاده الانكشارى فى الشوارع التى كان التجار الفرنسيين يقطنونها. وهناك دلنى خادم إلى صديقاى الدكتور هوكر Hock-er ودانكه Danke حيث استقبلانى بترحاب شديد. وأما القشعريرة فبالرغم من أنها على ما يبدو قد تركتنى، لكن شعرت بها طوال الصيف التالى. ولما قدم شهر نوفمبر اصبح الجو باردا ورطبا =

حيث تنتشر المناطق المأهولة بالسكان إلى اتساع ملحوظ. فالنهر يتفرع إلى فرعين أساسيين: واحد يتجه شرقا والآخر غربا، فمصر إذن هى واحدة من البلدان المتميزة والعجيبة على وجه البسيطة، ولا يساورنى أدنى شك فى أن بقاء الجزء المأهول بالسكان يعتمد أساسا على هذا النهر العجيب. وهناك العديد من الملاحظات التى دونتها أثناء إقامتى فى هذا البلد، وكلها تؤكد هذا الرأى.

الملحوظة الأولى: إن كافة المساحة المسطحة من الجزء المأهول بالسكان تتكون من نفس التربة التى يتركها النهر فوق الحقول كل عام بعد أن يغرقها بالمياه، وهذه التربة تتكون من غرين أسود ناعم مختلط بقليل من الرمل عمقه يتراوح ما بين سبعة أو ثمانية أقدام فى العمق. ولقد قمت أحيانا بفحص هذا الغرين الذى يخلفه النهر من

= ولذا عاودتنى مرة أخرى بقسوة مضاعفة إذ انها كانت تنتابنى مرتين كل يوم، وتستمر من العاشرة صباحا حتى السادسة مساء، وفى مرات أخرى من العاشرة مساء حتى قدوم الصباح بالرغم من أن آخر نوبة كانت أخف وطأة. واستمرت على ذلك الحال ستة أسابيع، تركتنى بعدها منهارا بشدة حتى أن الدكتور هوكر وأنا نفسى - بدأنا نشك بشدة ونفقد الأمل فى شفائى منها، وبفضل الله تماثلت الشفاء، بالرغم من أن بعض الألم الخفيف ظل ينتابنى بين الحين والآخر، لكنى لم أسقط مريضا لدرجة خطيرة طوال المدة التى قضيتها فى هذا البلد وهى من ١٣ يناير ١٧٧٠ حتى ٢٦ يناير ١٧٨٢ وهى فترة ستظل دائما حية فى ذاكرتى إلى الأبد بسبب ما واجهته خلالها من مخاطر، ولكن الله سلم وأخذ بيدى، وحفظ جسدى من أن يناله أى أذى حتى إننى الآن وقد بلغت الستين أشعر بصحة أفضل مما كنت وأنا فى التاسعة والعشرين عندما ذهبت إلى مصر فليتبارك اسمه.

هناك على ما يبدو وجود خطأ فى حساباتهم المستر انتيس إذ يقول إنه غادر قبرص فى الثالث من يناير عام ١٧٧٠ «وقضى فى البحر ثلاثة أيام وفى الأسكندرية يوما واحدا ثم فى الرحلة من رشيد إلى القاهرة ثمانية عشر يوما فكيف يجعل تاريخ وصوله مصر ١٣ يناير(؟) (المترجم). =

ورائه بكميات كبيرة فى القنوات، ولقد خيل إلىّ أننى وجدت أن الرمل المخلوط به أقل بكثير مما هو فى التربة العادية، وأنها بدون هذا الخليط تصبح جامدة جدا وصلبة لأن تصبح خصبة، ولما فحصت الكميات القليلة التى يتركها النهر فى الحقول الممتدة، وكذلك المسافات القليلة من الصحارى الرملية التى تنبعث منها دوامات الرياح الجنوبية الشرقية، القادرة على حمل الرمال الناعمة إلى أعماق الدلتا، ومما يؤكد لى هذه الفكرة: أن هذه التربة تبدو بكثير أقل اختلاطا بالرمال فى أواسطها وأطرافها السفلى، غير أن النهر فى الوقت الحالى لا يكاد يغطى شاطئيه، ويقومون بتسميد التربة ببقايا الأرز المتعفن وغيرها مثل زبل الحمام الذى يجلبونه بكميات كبيرة من صعيد مصر.

الملاحظة الثانيــــة:

إن العثور فى أماكن متعددة على مقربة من القاهرة الكبرى على كميات كبيرة من الحفريات والقواقع وغيرها مما يخرج من البحر، جعلتنى أعتقد بعض الأحيان أن الدلتا بأكملها لم تكن فى الأصل سوى خليج قليل العمق للبحر، أقول ضحلا لأنه أينما تجولت على ساحل البحر سوف ترى الصخور وهى بارزة قرب - أو فى مستوى - سطح الماء، وكذلك فى أماكن أخرى، وكلها توضح أن النهر قد ساعد على تكوينها برواسبه المائية بدرجات متفاوتة، وهكذا يكون سطح الدلتا الذى يشق النهر طريقه فيه من خلال عدة فروع. وهذه

الفروع غيرت مجراها واختلفت أعدادها من زمن لآخر. وهذا التغير المستمر هو السبب الذى جعل الكتّاب القدماء يختلفون كثيرا عند وصفها، ومن المحتمل أيضا أنه مادامت الدلتا كانت خليجا قديما، فلابد أن يكون هناك بعض الجزر ذات القاع الصخرى، وبالقرب من رشيد يوجد دليل قاطع أن هذا البلد فى حالة تزايد مستمر بفعل طرح النهر، ففى الأصل كانت رشيد مقامة على البحر عند مصب فرع النهر، لأنها تقع على الجانب الغربى منه فوق مرتفع صخرى بالرمال يبدأ خلف المدينة، ويستمر فى الامتداد حتى الإسكندرية، وفى شمال المدينة يوجد شريط طويل من التربة يتكون من الغرين الأسود الذى سبق الإشارة إليه الذى يترسب على جانبى النهر. أما فى الوقت الحاضر، نجد المصب قد أصبح على مسافة ما يقرب من خمسة أميال على الأقل من موقع المدينة. إن ذلك النوع من الغرين هو نفسه الذى يتكون منه السطح المأهول بالسكان الذى يكون مصر الوسطى والصعيد. وعند القاهرة الكبرى يبدأ الوادى ويمتد جنوبا حتى أسوان - آخر مدينة مصرية قبل النوبة - ويشق النهر طريقه بين تلين من الصخور، ويختلف عرضه، غير أنه نادرا ما يزيد على خمسة إلى ثمانية أميال، وفى كثير من الأجزاء يضيق كثيرا فيما عدا قرب الفيوم - مدينة أرسينوى القديمة - حيث يزداد اتساع النهر بشكل ملحوظ. ويبدو أن مجرى النهر فى الوقت الحاضر كأنه لم يغير طريقه كثيرا بعيدا عن الجانب الشرقى، أو تغير قليلا. لأن الأقدمين قاموا بحفر قنوات لإمداد الجزء الغربى بالماء منها ما

يعرف باسم باقر Bacher (يقصد بحر البقر) أو قناة بحر يوسف التى تبدأ من مصر العليا وتجرى عبر أغلب أجزاء مصر الوسطى حيث تصب فى بحيرة ميريس Moeris (بركة قارون) فى الفيوم. وهى ذات مساحة كبيرة. وحدث ذات مرة أن أبحرت فى هذه القناة لمدة يومين، فوجدت أنها كثيرة الانحناءات، وأعتقد أنه عمل مقصود حتى تمد أكبر قدر ممكن من الأراضى الصحراوية بالماء، لكنها من ناحية أخرى - كما أظن - أنها بسبب ذلك قضت على جزء كبير من الأرض الجيدة التى كان من الممكن توصيل المياه إليها عن طريق جداول صغيرة أو عن طريق أدوات الرفع. وعند القاهرة الكبرى يبدأ الجبلان فى الشرق والغرب يتباعدان فجأة، ويفسحان بذلك لبداية الدلتا الشهيرة والتى تبدأ بعدها بقليل حيث ينقسم النهر إلى فرعين رئيسيين هما فرع رشيد وفرع دمياط. والنهر لا يغمر إلا شطرا قليلا من البلاد، وهو الجزء المجاور للبحر من دلتا النيل، بالرغم من أن ضفتيه تنحدران أسفل فأسفل ناحية البحر.

ولقد تحولت الأجزاء السفلى منها فى الوقت الحاضر إلى حقول للأرز حيث أن زراعته تتطلب أن تكون الحقول مغمورة بالماء أغلب أوقات السنة، ولذا فهى تحاط بسدود صغيرة ارتفاعها قدمان ليدخل إليها الماء عن طريق ساقية تجرها الثيران، وتعرف باسم «العجلة الفارسية»، ولقد شاهدت منها أعدادا لا حصر لها فى مصر السفلى. وهناك نوعان من هذه السواقى تستخدمان أيضا فى كافة أنحاء الوادى من أجل تعويض خذلان النهر لبعض الأراضى

أو لزراعة الخضروات فى أوقات يكون النهر فيها فى أدنى مستوى له، وهى أدوات بسيطة ولكنها تلبى الغرض المطلوب وزيادة، وأظن أنها اختراع قديم جدا، وهى تستخدم فى جنوب فرنسا وإسبانيا والبرتغال وأغلب الظن أنها جاءت إلى هذه البلاد من بلدان حوض شرق البحر المتوسط.

وفى حوالى السابع عشر من شهر يونيو يبدأ نهر النيل فيضانه السنوى، الذى يتفق فى الغالب مع هذا التاريخ، إلا أنه قد يختلف بضعة أيام من سنة إلى أخرى، وطبقا للتقويم القفطى (يقصد القبطى) الذى تتم به كل الحسابات فى هذا البلد، فإن السابع عشر من يونيو هو عيد رئيس الملائكة ميخائيل، ولذا فقد ساعد ذلك على ظهور رواية اعتقد فيها بشدة كل من الأتراك، والأقباط، وسائر الملل المسيحية الأخرى فى هذا البلد، وهى أن هذا الملاك يسقط فى ذلك اليوم نقطة ماء فى النهر يكون لها قوة تخميرية تحدث ارتفاع ماء النيل لمستوى يغرق كل البلاد، ولهذا يطلق كافة السكان على يوم السابع عشر من شهر يونيو اسم يوم «النقطة» (التى تشير إلى نقطة الماء)، ولو أن أحدا اعترض على هذا المعتقد اتهموه بالجهل المطلق، وبنفس القدر إذا ما أنكر فضائل بئر النبوءات فى القرناؤس Garnaus فى مصر الوسطى، والتى طبقا لرأيهم تبين فى أول شهر من شهور السنة (يقصد شهر توت) عن طريق الارتفاع الإعجازى لمياهها، ومدى الارتفاع الذى سوف تصل إليه مياه النهر فى ذلك الموسم.

وقبالة القاهرة القديمة تقف جزيرة الروضة، كما قد تسمى كذلك ـ لأنها لا تتحول إلى جزيرة إلا عندما يزداد الماء، وعند طرفها الجنوبى يوجد مقياس النيل الشهير وسط مسجد قديم، ولقد أخذ حقه فى الوصف كما أن نوردن والآخرين عملوا له رسومات كثيرة وجيدة، وهو أشبه ببئر كبيرة مربعة الشكل لها درجات تؤدى إلى القاع عند أحد جوانبها، وفى أسفلها توجد فتحة يدخل من خلالها مياه النهر. وفى وسطها عمود من الجرانيت مثمن الأضلاع مقسم إلى قراريط وأصابع. ولقد سجلت بنفسى مقاسه بالضبط، ولكنى فقدته مع بقية أغراضى الخاصة الأخرى فى البحر، وهى فى مجموعها أربعة وعشرون ذراعا تركياً وهى ـ بقدر ما أتذكر ـ لا تزيد كثيرا على بضعة أقدام. ويدعم العمود صليب كبير من الخشب مثبت بالعرض عند طرفه الأعلى، وكان المنادون يعلنون فى كافة أنحاء المدينة عن كل زيادة يزيدها النهر كل يوم ابتداء من شهر يوليو، غير أنهم فى العادة يخفون جزءاً من هذه الزيادة حتى يكون لديهم شىء احتياطى يقولونه إذا ما حدث وهبط ارتفاع النهر بوصة أو بوصتين فى أحد الأيام، وهو ما كان يحدث بالفعل من حين لآخر. وكانوا يحرصون على وصول المياه فى المقياس إلى أصابع كثيرة قبل تحديد يوم لفتح هويس القناة التى تشق المدينة، وفى هذا اليوم يقومون بإعادة القياس خصيصا لهذه المناسبة.

وفى الغالب يرتفع النهر بانتظام ما بين أصبعين إلى أربع أصابع أو عدة بوصات فى اليوم الواحد، ولكن أحيانا وفجأة يرتفع ياردة أو

أكثر، ثم يهبط فى يوم آخر عدة بوصات قليلة، وهو مايعزى بشدة إلى الريح الشمالية القوية التى تهب فى ذلك الفصل من السنة، أما إذا وصل النهر إلى أقصى ارتفاعه، فإن عمود مقياس النيل يصبح كله تحت الماء.

وقرب منتصف شهر أغسطس يبدأ النهر فى إغراق شاطئيه، وقرب نهاية شهر سبتمبر يصل إلى أقصى ارتفاعه، بعدها يبدأ فى الهبوط تدريجيا. ولو حدث أن ارتفع فجأة إلى مستوى عالٍ، لكنه لا يمكث بقدر كافٍ ليغطى كافة الحقول، فلن يكون العام عام رخاء، وقد يترتب على ذلك عواقب وخيمة لو أنه بالمثل انسحب من الحقول بسرعة قبل أن يبرد الهواء، لأن أنواعا كثيرة من الحشرات (الديدان) سوف تتكاثر فى التربة، وفى ذلك خطر على بعض أنواع الخضروات.

وعقب انحسار مياه النهر تبذر البذور فى الحقول، كل فى حينه حسب درجة ارتفاع بعضها بعضا، فبعض الحقول لا تنحسر عنها المياه قبل شهر ديسمبر، وقد تبقى أطول من ذلك فى بعض البرك الموسمية (المؤقتة)، وقناة بحر يوسف لا تجف أبدا بالرغم من أنها ضحلة عند بدايتها، ومن ثم فإنها سرعان ما تفقد ما يزودها النهر به. ويشاع بين أهل الريف أن بها ينابيع مياه كثيرة، غير أنى لم أتأكد تماما من هذا الادعاء، ولدى من الأسباب ما يجعلنى أشك فى صحة أى منها.

وباستمرار وعلى أثر زيادة النهر يقومون بتطهير القناة التى تشق القاهرة وتتصل عند المطرية ببركة الحج (التى تعنى بركة الحجاج الذين يذهبون كل عام إلى مكة ويتجمعون عندها)، غير أنهم يقيمون سدا عند فم الخليج(١) فى القاهرة القديمة، ولا يفتح حتى يصل النهر إلى مستوى معين من الارتفاع، وهذا يحدث عادة قرب منتصف أغسطس، وعندما يتم ذلك فى احتفال كبير يحضره الباشا، وإذا حدث ولم يبلغ النهر الارتفاع اللازم لفتح الهويس عندئذ لا يحق للسيد الكبير Grand signior (أى السلطان العثمانى) أن يطالب بالخراج عن ذلك العام. ولكن يبدو أنهم يحرصون على تحديد ارتفاع النهر عند حد مخالف للواقع، لأنه لو توقف ولم يرتفع عند حد معين، ففى هذه الحالة، سوف يهلك على الأقل نصف السكان من الجوع، ولكى يكون العام عام خير وفير لابد أن يرتفع النهر إلى درجة عالية. واليوم الذى تفتح فيه القناة يكون عادة يوم فرح وسرور عند كل طبقات الشعب، ولهم الحق فى ذلك لأن سعادتهم ورخاءهم فى العام (الآتى) يتوقف كلية على وصول النهر إلى ارتفاع كافٍ، كما كان لا يسمح بفتح أية قناة أخرى فى البلاد قبل فتح هذه القناة، فقناة الإسكندرية (يقصد ترعة المحمودية) التى تمد المدينة بالمياه طوال

---

(١) هو أيضا رحالة كتب عن مصر. انظر المقدمة ص٦ (المترجم)

لقد ألقينا مراسينا عند نفس الموقع الذى تمكن فيه اللورد نيلسون من هزيمة الأسطول الفرنسى عند مسافة قريبة من الجزيرة الصخرية التى نصبوا فوقها بطاريات مدافعهم.

اننى لن أشغل القراء بحكاياتى لأن المتن به ما يكفى من أظهار المعاناة التى يواجهها المسافرون إلى تركيا خاصة فى المناطق قليلة السكان. (المؤلف)

العام، والتى تبدأ عند قرية يقال لها الرحمانية فى مصر السفلى، لا تفتح إلا فى شهر سبتمبر، والقناة الكبيرة الأخرى على الجانب الشرقى من فرع دمياط لا تفتح إلا قرب نهاية هذا الشهر نفسه. وعندما تفتح قناة الإسكندرية فإنهم يتركون الماء يجرى فيها لمدة ثلاثة أيام قبل أن يملأوا منها الخزانات حتى تتطهر المياه كلية من كافة أنواع القاذورات التى تكون قد تجمعت فيها.

وعلى الضفة الغربية بالقرب من الجبال (يقصد الهضبة الغربية) خاصة حول القاهرة الكبرى وفى اتجاه أهرامات الجيزة تصبح الأرض أكثر انخفاضا من تلك القريبة من ضفاف النهر، وطبقا لوجهة نظرى، فإن سبب ذلك هو الطمى الذى يتركه النهر على مقربة من مجراه بكميات أكبر من تلك التى يحملها إلى مسافة أبعد، ولذلك فقد أقيم عدد من السدود فوق هذه الحقول حتى يسمح فقط بكميات المياه المطلوبة لتدخل إلى المناطق المنخفضة بقدر ما تحتاج لتصبح خصبة، وحتى لا تغرقها أو تبقى طويلا تحت الماء، والتى تبدو من موقعها أنها معرضة لذلك. ولما كانت الحكومة الحالية قد أهملت طويلا هذه السدود، فإن الماء يندفع إليها ويجرى فيها كلما وجد لنفسه منفذا. إن بقايا السدود القديمة القوية والأهوسة تُظهر بجلاء أن القدماء قد عرفوا كيف يحولون الزيادة الكبيرة فى الفيضان إلى مزايا أكثر نفعا.

وبالقرب من القاهرة الكبرى أقيمت عدة سدود من أجل حماية القرى المجاورة والتى نادرا ما تغرقها المياه، إذ أن الاختلاف فى زيادة

النهر من عام لآخر لا تزيد كثيرا على قدمين أو على الأكثر ثلاثة أقدام ولكن يحدث أحيانا أنها تنهار، وفى هذه الحالة لا يكون هناك أمامهم من وسيلة سوى استخدام القوارب للانتقال من مكان لآخر، أما عامة الناس فإنهم غالبا ما يخوضون فى جماعات من مكان لآخر وهم يضعون ملابسهم فوق رؤوسهم حيث يصل ارتفاع الماء حتى وسطهم، بل أحيانا حتى ذقونهم، وفى كثير من الأحيان يقابلون أماكن يجبرون فيها على العوم الذى هم فيه خبراء.

ولكى يبنوا قرية يختارون عادة أعلى المواقع، وإذا لم تتوافر هذه الشروط فإنهم يبعدون الماء عنها عن طريق بناء السدود التى يكون الطمى الأسود مناسبا جدا لبنائها، وبالرغم من أنها قد تتشبع كثيرا بالماء، لكن ذلك لا يحولها بسهولة إلى طين بل يحتفظ بدرجة تماسك كافية لمقاومة أى بلل، وكثيرا ما قد علتنى الدهشة كيف أمكن لسد صغير مقام بالقرب من النهر أن يبعد كمية مياه عمقها قدمان بعيدا بقدر كاف عن الحقول، لأن الذرة العويجة (Indian corn) وعدة أنواع أخرى من الخضروات لا تكون قد نضجت بعد، وعندما يبدأ النهر يغمر الحقول، يصبح من الضرورى عمل سدود حول حقولها لإبعاد المياه عنها حتى يمكن إنقاذها، غير أنهم فى الغالب يجعلونها غير سميكة، ولذا يضطر الفلاحون إلى مراقبتها ليل نهار، حقا لقد كان بعضهم مهملا حتى إننى شاهدت ذات مرة رجلاً عربيا يرتمى وينام فى فتحة صغيرة حاول يائسا سدها عدة مرات من قبل، وبذلك جعل من جسمه بديلا للجزء المنهار من السد. غير أن مياه النهر فى بعض

الأحيان ترتفع بسرعة وإلى درجة من العلو تذهب معها كل محاولاتهم سدى، وتكتسح المياه كل الخضروات، غير أن فى ذلك خسارة لبعض الأفراد فقط، يعوضها فى مجملها أن النهر يفيض فيغمر مساحات أكبر فى مناطق مختلفة من البلاد.

وعندما يبلغ النهر، أقصى زيادته تبدو القرى وقد أحاطتها بساتين النخيل وغيرها من أشجار الفاكهة - كجزر كثيرة مبعثرة فى بحر ممتد، تعجز العين فى بعض الأماكن عن أن تبلغ مداه، وهو منظر يسحر الألباب. فمع قدوم المياه تأتى إلى الحقول ملايين من الأسماك الصغيرة، ومعها أعداد لا حصر لها من الضفادع الصغيرة التى لا تشاهد أبدا فى أى موسم آخر من مواسم السنة. وعندما ينحسر النهر فإن هذه المخلوقات لابد أن تهلك، وعلى المرء أن يتصور مدى العفونة التى تحدثها فتفسد الهواء. لكن الخالق الحكيم أعد لذلك عدته، فما أن يبدأ الماء فى الانحسار، حتى تظهر أسراب لا حصر لها من طيور الماء المختلفة الأنواع حتى إن حافة الماء تزدحم بصفوفها، وتقوم بالتهام كل شىء من أصنافها حتى إننى بعد بحث دقيق لم أجد ضفدعة واحدة أو سمكة ميتة، بالرغم من أنها كانت قبل ذلك كثيرة لدرجة أنه فى استطاعة الواحد أن يمسك بها بيديه فى أية بقعة.

ليس النيل نهرا سريع التدفق بالرغم من أنه فى بعض الأحيان يكتسح فى طريقه جزرا وقرى بأكملها. وبسبب عدم استخدام وسائل

لتقوية شواطئ النهر، فإن المياه عادة تكتسح هذه الأجزاء التى يحدث فيها انحناء مفاجئ للنهر مما يسبب تحولا للتيار فيؤدى ذلك إلى تحطم وانهيار الحواف العليا لضفتيه بدرجات متفاوتة، عندما تلين ويكتسحها التيار. وتصبح الجزر - خاصة تلك التى كونها من تلقاء ذاته والتى ليس لها أساس سوى رمال مهترئة - دائما فى خطر، ولكن بمرور الزمن تكون لنفسها ترسبات عميقة من الطمى الأسود. ويقوم التيار بنحر القليل من بعضها ليضيفه إلى البعض الآخر. وإذا ما صادفه شىء يعوقه كقارب غرق، أو كتلة خشب، أو حجر فإنه يرسب عليها الرمال، وبمرور الزمن تتكون جزر ذات مساحات واسعة يغطيها الطمى الأسود بدرجات متفاوتة الذى بفضله تصبح الأرض منتجة لكافة أنواع الخضروات. وخلال إقامتى هناك شاهدت عدة تغيرات من هذا النوع: إذ لاحظت أن جزرا ممتدة قد اختفت تماما، وأخرى ظهرت بدلا منها.. وفى حالات أخرى التحم بعضها بالساحل بعد ردم الفجوات التى تفصلها عنه، وفى عامها الأول ربما تكون هذه الجزر حديثة التكوين، إذ إنها لا تُرى إلا عندما يكون النهر منخفضا، وتكون هى عبارة عن رمال ناعمة مفككة، وفى الموسم التالى تزداد ارتفاعا عدة أقدام، وأيضا تزيد فى الامتداد، كما يلاحظ وجود خليط قليل من الطين الأسود على الأجزاء المرتفعة منها بحيث يجعلها قادرة على إنتاج البطيخ، وفى العام الذى يليه يبدأ البوص الكثيف فى التكاثر هنا وهناك، وهو يساعدها إلى حد كبير على تجميع ترسبات جديدة، وهكذا تستمر فى الازدياد سنة بعد سنة حتى تصبح بقعا جميلة

خصبة حتى إن المرء يحسبها قائمة منذ بدء الخليقة، وتبقى على هذه الحال حتى يحدث تغير فى مجرى النيل، ويصبح التيار موجهـا عكسها، حيث يجرفها بعيدا، إن لم يكن فجأة، فإنه يكون بعد وقت قصير للغاية. بهذه الطريقة رأيت عندما جئت إلى هنا ـ قرى بأكملها ـ يجرفها التيار بعيدا بالرغم من أنها لم تكن قائمة على مقربة من شاطئ النهر، كما رأيت قرى كانت على مقربة من مجرى الماء، أصبحت بعيدة عن النهر بقدر كافٍ نتيجة لحدوث ترسبات فى التربة.

وعندما لاحظت أن أجزاء كثيرا من التربة تتآكل كل عام، ويجرفها النهر بالطبع نحو البحر، اعتقدت أن ذلك لابد أن يكون الحال منذ أن تكوّن هذا النهر، بدا لى رجحان كفة الرأى السابق، وهو ربما أن أغلب أجزاء الدلتا، إن لم يكن كلها ـ قد تكوّن بهذه الطريقة، ولا تزال تستمر فى التزايد متغذية على البحر ـ كذلك يجب أن نحسب كميات الرمال والغرين الأسود التى تنساب بكميات كبيرة نحو البحر، وهذه لا تذهب إلى مسافات بعيدة لأننا لا نلاحظ أى تغير فى لون المياه غير أن ماء البحر العادى فى نطاق مسافة ليست بالبعيدة عن مصب النهر، كما أنه لا يمكن للرمال ولا للطمى أن يتبدد، بل لابد لها أن تتجمع فى مكان ما، وكدليل على أن الدلتا تكونت بهذه الطريقة يمكن أن نضيف دليلا آخر وهو عدم العثور على أية آثار شديدة القدم فى هذه الأراضى المنخفضة، اللهم إلا فى بعض المواقع المرتفعة قليلا، وحتى العثور عليها فيها قليل ـ ولا تبدو شديدة القدم كالآثار التى

نعثر عليها فى الأجراء العليا من البلاد.

ولقد افترض بعض الكتاب - ونقل آخرون عنهم رأيهم - أن ماء النيل قبيل فيضانه يكون أخضر اللون، وعندما يكون فى قمة فيضانه يصبح أحمر اللون، إلا أنه يجب عليّ أن أقر أننى بكل ما أوتيت من قوة خيال، لا أكاد ألاحظ وجود أى من هذه الألوان بالرغم من أن سكان مصر يطلقون أيضا على ماء النهر فى قمة الفيضان عبارة «مويه أو ماء أحمر» Moye or Ma Achmar. إذ إنه قبيل الفيضان يكون دائما شديد الصفاء، تشوبه مسحة بيضاء أشبه بلون (ماء نهر) الراين إذ يكون مختلطا ببعض العوالق من التربة، وكلما زاد ارتفاع النهر فإن هذه العوالق تكثر بالطبع، ولما كان لونها قاتما أو رماديا يميل إلى السواد، فإن لون الماء يبدو كذلك أيضا.

وخلال الفترة من بداية شهر مارس إلى منتصف شهر يونيو يموج النهر بكميات كبيرة من الديدان الصغيرة، خاصة قرب الشاطئ، التى يتراوح طولها ما بين أربع بوصات إلى ثلث البوصة، غير أنها ليست مؤذية تماما حتى لو ابتلع الإنسان كثيرا منها مع شرب الماء، إلا أنه يكون من الأفضل لو صفى الماء بقطعة من القماش أو بمصفاة دقيقة للتخلص منها.

ويؤكد كل الأوروبيين الذين سكنوا مصر أن ماء نهر النيل أفضل مياه للشرب يمكن الحصول عليها من أى مكان آخر، وأنا عن نفسى أفضلها على غيرها من مياه الآبار والعيون التى تذوقتها حتى إن

كانت شديدة الصفاء، فهى صحية جدا لأنها خفيفة وتساعد على هطول العرق، وهى عذبة المذاق خاصة عندما يكون النيل مكتمل الفيضان، حقيقى أن العرب يطلقون على الحَب الذى يطفح على الجسم بسبب الحرارة مصطلح «حمو النيل» Hamoun el Nil لأن انتشارها يشيع بين الناس خلال موسم فيضان النيل بالذات، غير أن ذلك لا يمكن أن يعزى إلى تأثير مائه، ولكن لدرجة الحرارة فى ذلك الوقت من السنة كما هى الحال فى أى مكان آخر، وكما هو شائع فى الأجواء الحارة التى لا يوجد فيها مياه النيل ليشربوها.

ولقد اعتاد الناس فى القاهرة الكبرى أن يملأوا الجرار الكبيرة بماء النيل التى فيها يروق تدريجيا ويصفو ويصبح صالحا للاستخدام، أما إذا أرادوا أن يجعلوه يصفو بسرعة فى سويعات قليلة فإنهم يضيفون إليه قليلا من مسحوق اللوز أو نقى المشمش، ثم يحركوه حتى يتحقق الغرض المطلوب بقدر كافٍ.

وعندهم طريقة مميزة لتبريد الماء جديرة أيضا بالملاحظة إذ إن لديهم نوعين من الأوانى المصنوعة من الفخار الرملى، بها مسام يسمح للماء بالتسرب منها، أو على الأقل بقدر يسمح للآنية أن تكون على الدوام مبللة من الخارج، ولديهم نوع من الحامل يضعون عليه عددا من هذه الآنية المملوءة بالماء فى فتحات تستقر فيها، وصممت لهذا الغرض، وبهذه الطريقة يعرضونها لتيار الهواء بقدر الإمكان، وتحت الحامل يوضع إناء مصمط بلا مسام، ولا ينضح ليستقبل ما

ينقط من الماء الذى يتخلصون منه، بالرغم من أنه أشد درجات الماء نقاء لأنه مرشح بفضل هذه الآنية، ويعرض الحامل لتيار الهواء فى الظل بقدر الإمكان، وعندما يداعب الهواء هذه الآنية يزيد الماء الذى بداخلها برودة عن درجة الهواء الذى يصطدم بها، خاصة لو تعرضت هذه الآنية للرياح، ووضعت فى مكان مكشوف حتى لو سقطت على أشعة الشمس المحرقة فإن النتيجة تكون واحدة، ولكن بدرجة برودة أقل. وهذه الآنية ذات أشكال مختلفة، إلا أن أكثرها شيوعا نوعين أحدهما له عنق ضيق (وبطن كبير) بهذا الشكل، أما النوع الثانى فهو بهذا الشكل أى يكون متسعا فى جزئه الأعلى، ويوجد فاصل عند العنق به عدة ثقوب، ومما يلفت النظر أن النوع الأخير لو ملئ حتى نهايته فإن الماء الموجود أعلى الفاصل لا يبرد أبدا، بينما الجزء الأسفل يكون باردا بقدر ما تريد. وبهذه الطريقة فى استطاعتهم الحصول على ماء ساقع جدا بدون استخدام الثلج أو ملح البارود، ولكن إذا حدث وسدت مسام هذه الآنية لدرجة تجعلها جافة من الخارج، فإنها تصبح عديمة الفائدة. لأنه فى هذه الحالة لن يبرد الماء الذى بداخلها بل على العكس سوف يزداد دفئا. وأفضل أنواع هذه الآنية يصنع فى «قما» Kema (يقصد قنا) فى صعيد مصر وهو نوع من الفخار الذى يميل لونه قليلا إلى الزرقة، وهناك نوع بنفس اللون يجلب من مكة ويقدرونه كثيرا هنا ربما بسبب المعتقدات الدينية، لكن لابد أن نعترف أنه من نوع جيد وصناعته تفوق مثيلاتها التى صنعت فى مصر جودة، أما من ناحية السعة فهى تختلف من باينت Pint (مكيال إنجليزى يسع ١٢٥ جراما) إلى عشر أو اثنتى عشرة ربعة Quart (الربعة تساوى $\frac{١}{٤}$ جالون).

وبالرغم من أن الآبار حول القاهرة ذات ماء آسن، إلا أن القليل منها به ماء طيب جدا، ومهما كان الأمر فإن مياه النيل هى المفضلة دائما على غيرها أينما أمكن الحصول عليها.

وماء النيل لا يتعفن أبدا، ولا تظهر عليه أية علامة من علامات التخمر، وهذا يمكن التأكد منه من خلال البحيرات الكثيرة التى تمتلئ به وتوجد حول القاهرة الكبرى، وكذلك من الخزانات العديدة الموجودة، وهناك - وعلى الأخص فى الإسكندرية - والتى يخزنون فيها الماء من العام إلى العام الذى يليه، بل يمكن الاحتفاظ به فى وعاء بالبيت لأية فترة دون أن يلاحظ حدوث تغيرات فيه حتى بعد أن يجف تماما. ولقد حملت معى إلى أوروبا قارورة صغيرة منه وتركتها فى أحد متاحف مقاطعة سكسونيا (فى ألمانيا) ولم تظهر عليها أية علامة من علامات التخمر، ومن ثم فهى أفضل أنواع المياه التى يتزود بها المسافر. وما إن يبدأ النهر فى الانحسار، وتفقد البحيرات والخزانات ما تستمده من مياهه عندئذ تفوح منها رائحة الوحل إلى حد ما لأيام قليلة، ولكن سرعان ما تترسب العوالق الطينية، ويصبح الماء صافيا، ويظل كذلك محتفظا بعذوبته لآخر قطرة. وكثيرا ما علتنى الدهشة أن أرى استمرار استخدام البحيرات لغسل الملابس بالرغم من أن ذلك السلوك لا يتسبب عنه أى تغيير فى طبيعته.

هذه الملاحظة - كما يخيل لى - تتعارض تماما مع الفكرة القائلة إن من أسباب وباء الطاعون تعفن الماء الراكد الذى يتركه النيل فى

الحقول بعد انتهاء الفيضان، وهناك دليل على براءة النيل من إحداث الضرر وهو ما يلى:

إنه لمن المعروف جيدا أن البلدان التى تزرع الأرز، وحيث تكون حقوله بالطبع تحت الماء - هى بلدان غير ملائمة للصحة، وأن مرض القشعريرة (يقصد الملاريا) تنتشر فيها أكثر من أى مكان آخر، لكن ذلك ليس هو الحال هنا، فلا أحد يشكو من القشعريرة حتى فى وسط حقول الأرز التى لا حصر لها فى مصر السفلى، سواء من جانب الأهالى أو الأجانب، غير أن هناك واديان يقعان على مسافة مسيرة ثلاثة أيام إلى الغرب من مصر العليا والوسطى يطلق عليهما اسم «الواحة El - Wach´ وبالعربية: «الواحات» وكلاهما يخضع لحكومة هذا البلد «وأقصاها موقعا فى الجنوب هى أكبرها - وطبقا لتقارير بعض أصدقائى الذين ذهبوا إليها يوجد بها خمس قرى وعدة عيون ماء، واحدة منها ساخنة تكون نهيرا سرعان ما يضيع ماؤه فى الرمال، وهذا الوادى يعرف باسم الواحة الكبرى El - Wach el Ke-bier أو الواحة الكبرى، ومن منتجاتها الرئيسية التمور، وكميات كبيرة من المشمش وبعض أنواع الفاكهة إلى جانب الشعير، وهذا الوادى صحى تماما. ولكن يوجد فى الوادى الآخر الذى يقع إلى الشمال منه بعض عيون الماء التى تكون نهيرا تضيع مياهه أيضا فى الصحراء ويطلق على هذا الوادى اسم الواحة الصغرى، حيث يزرع فيها كميات من الأرز الأقل جودة، وتغمر الحقول بالماء عن طريق هذا

النهير الصغير. وهناك لا يسلم أحد من الأهالى، من حمى القشعريرة، وهذا مبعثه بكل تأكيد نوعية الماء والذى بدونه يصبح البلد جافا بدرجة لا مثيل لها فى أى بلد آخر يقع على حدود النيل.

وأذكر أننى قرأت فى بعض المصادر القديمة أنه يمكن استخراج الملح من ماء النيل، وأن كافة الملح المستخدم فى مصر مستخرج منه، ويبدو أن عندهم بعض المبررات لهذا الافتراض تحتاج إلى تفسير، وهو أن ماء النيل العادى لا يخرج ملحا، إنما حفر الملح كلها توجد بالقرب من شاطئ البحر، وأكثرها يقع بالقرب من رشيد، إلا أن كميات قليلة جدا من الملح تستخرج من سطح البحر. وكل الأراضى القريبة منه مشبعة بالملح، الذى يبدو واضحا للعيان خلال موسم الصيف فى الحقول والبساتين، حتى إن النهر يصبح ماؤه يميل إلى اللون الأبيض لعدة أميال جنوبا، بالرغم من عدم ملاحظة حدوث أى مد آتٍ من البحر، وهناك يتوفر لديهم حفر الملح (الملاحات) حيث يتركون ماء النيل يدخلها عندما يفيض، ثم يستخرج الملح من الأرض، حيث يعثر عليه بكميات كبيرة عندما تجف المياه بفعل حرارة الشمس وهو من نوع جيد. ويوجد أيضا ملح الصخور فى مصر العليا، لم أر منه سوى قطعة كبيرة لونها يميل إلى الزرقة وطعمها فيه مرارة.

والآن - كما هو معروف جيدا - أن كل البلدان المليئة بالحفر الطبيعية للملح (الملاحات) مثل قبرص، وعديد من جزر اليونان، هى بلدان غير صحية على الإطلاق، ولكن الحال غير ذلك فى رشيد، بل

على العكس هى واحدة من أكثر المناطق ملاءمة للصحة فى عموم مصر. ألا يمكن أن نعزى ذلك - إلى حد كبير - لمياه النيل؟.

ونهر النيل يكتظ بلا حدود بالأسماك، ولن أسعى للحديث عن كافة الأنواع التى يحتويها، أما عن تلك الأنواع المناسبة للطهى فلا أعرف منها غير ثلاثة أنواع كلها طيبة للغاية، وهى الأنواع التى يسميها الأهالى: بالبورى والبلطى والقشرة (Kesher) أما الأنواع الأخرى فهى ليست مميزة. أما الملايين من الأسماك الصغيرة التى تبدأ فى الظهور عندما يفيض النهر على ضفتيه حتى تمتلئ بها كافة مياه الحقول وكافة البرك، فهى لا تكاد ترى أو لا ترى على الإطلاق إلا فى هذا الموسم، وهى لا تزيد فى حجمها على حجم سمك الأنشوجة وهى نوعان: واحد يسمى ريه (Rajah) والآخر يسمى البساريا (Passari) وكلاهما مذاقه طيب إذا أكل مقليا، غير أن النوع الأول وهو الأفضل يتميز عن النوع الآخر بأن حجمه أعرض وتوجد عدة نقاط حمراء على زعانفه. والواحدة من هذا النوع تكبر حتى تصبح فى حجم الرنجة الصغيرة، بعدها تصبح غير مفضلة للأكل بسبب كثرة العظام الصغيرة فيها التى لا تلاحظ عندما تكون صغيرة. ويقول الأهالى إن نوعا من الأسماك النيلية تعرف باسم البونى Bunni (ربما يقصد البنى) هى التى تفرخها، وهى بالفعل شبيهة بها. وعند مصب النيل توجد أعداد كثيرة من الأسماك من نوعيات كثيرة لأن أصنافا كثيرة تأتى إليه (إلى النيل) من البحر، لكنها لا تذهب جنوبا أبعد من

القاهرة الكبرى. وهناك مصائد كبيرة للأسماك فى رشيد، وعلى الأخص فى دمياط، يأتى فى مقدمتها سمك البورى الذى سبق ذكره، حيث يقومون بتمليحه وتصديره إلى مناطق كثيرة من تركيا. وبيضه يعرف جيدا باسم البتارجو Butargo (يقصد البطارخ)، حيث له شهرة عالية فى كل أنحاء حوض شرق البحر المتوسط، وتزن السمكة الواحدة عادة ما بين رطلين إلى أربعة أرطال. ولقد رأيت ذات مرة أحد أنواع السمك الرعاش Torpedo اصطيدت من النيل قرب القاهرة الكبرى، وهى سمكة قميئة المنظر طولها قدمان ونصف القدم تقريبا، ويختفى تأثير لمسها عند موتها. كذلك فإن قناة بحر يوسف تفيض بالأسماك لكنها من نفس الأنواع الشائعة فى نهر النيل، كما توجد بعض أنواع السمك الثعابين الجيدة فى أغلب أنحاء البلاد.

والتماسيح شائعة جدا فى مصر، فكلما توغلب جنوبيا كما تزايدت أعدادها، لكنها قلما تصل شمالا أبعد من القاهرة ولا تتعداها، ويدعى الأهالى أنه بفضل مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالا لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد، غير أن تفسير ذلك هو أن الأعداد الكبيرة من القوارب التى لا تتوقف عن الإبحار شمالا، وجنوبا بين كل من رشيد ودمياط من ناحية، وبين القاهرة من ناحية أخرى، تقلق راحتها ولا تجعلها تستقر، ولما كانت أعداد هذه القوارب تقل كلما بعد عن القاهرة جنوبا، وتصبح أقل عددا كلما تعمقنا جنوبا، مما يتيح لهذه الحيوانات أن تعيش دون إزعاج، ويقل

الإقبال على صيدها. وخلال إقامتى تم اصطياد عدد من التماسيح صغيرة الحجم يتراوح طولها ما بين خمسة إلى ستة أقدام من على مسافة قريبة جنوب القاهرة. وقد شاهدتها حية، واستطعت أن أميز بين نوعين من التماسيح بالرغم من أننى أشك عما إذا كان هذا الفارق يرجع إلى الفرق بين الذكر والأنثى، فالنوع الأول يزيد طولا على النوع الثانى بالنسبة لضخامته، لكن ذلك يتضح أكثر فى الذيل، وإلى هذا النوع يرجع كل الأنواع التى شاهدتها معروضة فى متاحف فلورنسا ولندن وبعض مدن أوربا الأخرى. أما النوع الثانى فجسمه أكثر اكتظاظا وجلده أكثر خشونة، وقد حملت معى جلد تمساح من النوع الثانى محشوا ويمكن رؤيته فى مدينة باربى فى سكسونيا، وهو بالمقارنة أطول بكثير من النوع الذى رأيته فى أى متحف آخر خاصة فى ضواحيها. إذ إن طوله بلغ ستة عشر قدما.

أما عن فرس النهر فلا يشاهد إلا فى أقاصى الأطراف الجنوبية فى البلاد، وهذا للأسباب التى لاحظتها آنفا، وتتكاثر هذه الحيوانات بشكل أكثر فى أجزاء إفريقيا الأخرى، استنتج ذلك من كميات الكرابيج الكثيرة التى تصنع هناك - كما قيل لى - من جلود هذا الحيوان، والتى تأتى بها إلى القاهرة الكبرى كل عام قوافل الزنوج الذين يأتون من أغوار إفريقيا الداخلية، ويعرفون باسم «الجلابة»، والبلد الذى يأتون منه تسمى تارفور (يقصد دارفور) وهذه الكرابيج عبارة عن شرائح من الجلد نصف المدبوغ تقتطع من جلدها بطول

باردة وقطرها حوالى بوصة واحدة(*) الذى هو سمك الجلد عند ظهر الحيوان، وهى تستخدم فى تركيا، عند الضرب «بالفلكة» على كعبى القدم ولتنفيض السجاد وغير ذلك، أما ظاهر الجلد فهو يشبه مثيله تماما الذى شاهدته فى فرس النهر. إلا أن جلد الفيل لا يختلف عنها كثيرا. وبالرغم من أننى تصاحبت مع قائد هذه القافلة الذى كان يروى لى دائما أنها صنعت من جلد حيوان يعيش فى الماء، غير أننى لم أستطيع أن أعرف بالضبط عما إذا كانت تأتى من نهر النيل أو النيجر أو غيرهما من الأنهار الكبرى إذ إنه كان لا يعرف سوى قليل من العربية الركيكة، وربما لم يكن يعرف اسما آخر له سوى البحرِ El –Bacher التى تعنى كلا من النهر والبحر.

لم يعد فيضان النيل كل عام سرا، ولسنا فى حاجة لأن نسلى أنفسنا بحكايات القدماء العديدة عن ذلك لأنها تثير الضحك، فالأمطار الاستوائية المنتظمة التى تسقط على الحبشة هى التى تمد النهر بكميات المياه اللازمة لفيضانه، وهى دائما تبدأ فى الهطول مع بداية شهر يونيو وتستمر حتى سبتمبر - وتكون كافية لإحداثه، وأحيانا تسقط الأمطار قبل موعدها فى منتصف شهر مايو، إلا أنها تصبح فى شهر يونيو غزيرة ومنتظمة، وهى تمطر كل يوم ما بين ثلاث إلى أربع ساعات، وعادة يكون هطولها غزيرا حتى إنها تملأ قصعة قطرها قدم بحوالى خمسة عشر رطلا من الماء خلال ساعة واحدة طبقا لما

(*) يبلغ سمك جلد الحيوان عند ظهره حوالى بوصة، فإذا ما قطعت شريحة منها أعرض قليلا، ثم طرقت عند أطرافها تصبح فى ذلك الحجم (المؤلف)

لاحظه المستر بروس، ولا بد أن يؤدى سقوطها إلى حدوث فيضان هائل من المياه يغرق كافة أرض هذا البلد الشاسع، ومن ثم فهى تشق طريقها إلى نهر النيل عن طريق مخرات ونهيرات عديدة بعضها دائم والبعض الآخر موسمى (باستثناء كمية قليلة قد تختلط بالتراب وتتحول إلى وحل) وهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تتيح للنهر أن يشق طريقه ليتصل بالبحر (المتوسط) فى هذا الجزء من إفريقيا. ويتوقف رخاء مصر ورفاهية سكانها على سقوط هذه الأمطار بوفرة، وبحساب كمياتها فى استطاعتهم دائما أن يتنبئوا بكميات المحاصيل التى يتوقعون حصادها خلال عام قادم. لأن ذلك البلد قلما يتعرض للكوارث الطبيعية التى غالبا ما تسبب الدمار لأكثر المحاصيل توقعا للعطاء فى الأقطار الأوروبية، فهى تخلو من شدة انهمار الأمطار المستمرة وتخلو من سقوط البرد ذى الطبيعة المدمرة، كما أن الجفاف الكبير لا يؤثر فيها كثيرا. صحيح أن أسراب الجراد قد تهاجم البلاد، ولكن ذلك قلما يحدث حتى إنه لم يحدث سوى مرة واحدة خلال اثنى عشر عاما، فقد شاهدتها وهى تملأ الجو لدرجة جعلت الدنيا تظلم، ولكن ذلك حدث فقط أثناء مرورها فى وقت من العام لم يكن فى قدرتها إحداث سوى قدر ضئيل من الضرر أو لا شىء من هذا القبيل، والشىء الوحيد القادر على إحداث الضرر - كما أتذكر - هو نوع من الديدان التى تتكاثر فى التربة على أثر انسحاب مياه النهر من الحقول، هذه الديدان تتغذى على جدور البرسيم غذاء الماشية الوحيد، إلا أن ليلة واحدة رطبة كافية للقضاء عليها حيث

يعثر عليها وقد تجمعت حول بعضها بعضاً فى التربة، وهنا تصبح صيدا سهلا للطيور. وقبيل إغراق النهر للحقول، تعيش فيها أعداد كبيرة من الفئران التى تجد لها مأوى فى جحور فى التربة، حيث تتعيش على بقايا سنابل القمح التى تتبقى بعد الحصاد، أما قبله فلا تكاد تراها - أو قد ترى قليلا منها فى الحقول - هذه الفئران تتكاثر بأعداد غفيرة لو لم يقض النهر سنوياعلى الملايين منها فى جحورها التى تحتمى بها، وإلى جانب ذلك تقوم الصقور من كل الأنواع والأحجام بالتهام أعداد كبيرة منها حتى لا يوجد سبب للخوف من الخراب الذى قد تحدثه.

وبفضل هذه الظروف فإن سكان مصر قد يكونون فى مأمن دائم من حدوث أية مجاعة أو نقص، لأن عاما وفيرا واحدا قد يغطى استهلاك عامين، وفى حالات الضرورة فقد كان فى إمكانهم الاستيراد فى الوقت المناسب من البلدان الأخرى كل ما يتوقعون أنهم سوف يكونون فى حاجة إليه، كما أنه فى إمكانهم - بقليل من النفقات - تطوير الطبيعة، ففى استطاعتهم أن يبنوا طواحين الهواء أو ماكينات عن طريقها يتمكنون من غمر البلاد بالماء وذلك فى حالة عجز النهر عن الوفاء بفيضان لا يصل إلى نصف زيادته، أو حتى لا يفيض على الإطلاق، وهذه الماكينات يمكن أن تعمل بقوة دفع الرياح التى نادرا ما يتوقف هبوبها أكثر من عشرة أيام طوال العام، بل أقل من ذلك بكثير أثناء موسم الفيضان.

وهناك تطوير آخر كبير يمكن تنفيذه لكنه يحتاج إلى تكاليف باهظة. ولا يتم إنجازه بسرعة لأنه يتطلب أزمانا قبل أن يكتمل، لكنه - بلا شك - سوف يفى بالحاجات تماما ويكون ذا نتائج مفيدة جدا، وهو ردم جانبى النهر على طول امتداده، وتحويله إلى مجرى أضيق، ويمكن إتمام ذلك بسهولة لأنه نهر ليس سريع التدفق، وبذلك يتحقق الحصول على مساحة كبيرة من الأرض الزراعية ذات القيمة الإنتاجية العالية ولن يحتاج رى أراضى الشاطئين أكثر من ربع كمية المياه اللازمة حاليا لأن مجرى النهر فى الوقت الحاضر أعرض مما ينبغى لكى يحمل المياه إلى البحر خاصة عندما يكون منخفضا، ومن ثم فإن ذلك سوف يكون مشروعا عظيما، وليس عندى أدنى شك فى إمكانية إنجازه، إن كميات الأتربة التى سوف تستخرج - هى فى نظرى - كافية لردم كل قدم لدعم الشاطئين، خاصة أن الحصول على الحجارة القوية متاح فى عدة أماكن وعلى مسافة ليست بالبعيدة، فالنهر كثيرا ما يجرى بالقرب من الجبال الصخرية عند جانبه الشرقى، والشواطئ على هذا الجانب ليست فى حاجة إليها، لكن يمكن نقل الأحجار عن طريق تعويمها شمالا فى النهر إلى أى مكان يكون فى حاجة إليها. وإلى جانب الأراضى التى سوف تكتسب سيكون هناك الفائدة العامة من رى البلاد بكميات أقل من المياه. وباختصار فإن مجموعة كبيرة من المشروعات قد تحول هذا البلد بأكمله إلى حديقة غاية فى البهجة والسرور. حيث لا يحتاج الأمر كثيرا لتحقيق حياة رغدة ومواتية تحدث طفرة كبيرة فى تجارته، إذ لا

يوجد بلد آخر فى العالم يفوقه، فى موقعه الممتاز، ولكن.. وآسفاه.. إن طموحات السكان الحاليين ضئيلة للغاية لتنفيذ ذلك، كما أن جشع وطغيان رجال السلطة كبيرة للغاية، فهم لا يفكرون أبعد من حاضرهم، حتى إنهم فيما بينهم يقولون لبعضهم بعضاً: **«إننا خلقنا للسيف، فدعونا نستمتع بقدر ما نستطيع فى يومنا هذا لأن لا احد يدرى من سيعيش للغد»** ونتيجة لذلك فإن أهل الفنون عندهم يفقدون كل الشجاعة لتطوير أنفسهم، فالابن يفعل نفس الشىء الذى يرى أبوه يفعله، كما أنه بسبب الظلم والقمع قلما تجد فنانا أوروبيا واحدا قد تغريه الظروف لكى يساعدهم. هكذا فإن هذا البلد المبارك ـ الذى يمتلك كل هذه الإمكانات والمزايا الطبيعية ـ ذات القيمة ـ والتى لا تقدر بثمن ـ يجد نفسه قد فقدها بسبب تسيير أمور سكانه بطريقة فاشلة، فالفقراء منهم قانعون وراضون بالعيش فى حياتهم التعسة، بل إنهم كثيرا ما يهلكون بسبب الفقر فى حين أنهم يعيشون فى قلب فردوس الأرض!

الفصل الرابع

ملاحظات على المناخ وفصول السنة فى مصر

قلما يوجد بلد على الظهيرة، ينتظم فيه المناخ بشكل ملحوظ مثل مصر، ولذلك تأثير - ليس بالقليل - على طبيعة شعبها، وطبقا لذلك فليس من المستغرب أن ترى أناسا بلغوا المائة من العمر، وربما ازداد عدد هؤلاء لو لم يحرموا أنفسهم من هذه المزية بسلوكهم غير المنتظم، فلقد رأيت بنفسى رجلا يعتقدون أنه قد بلغ المائة والثلاثين من عمره، إلا أن أغلب هؤلاء لا يستطيعون إثبات أعمارهم بالوثائق الرسمية، غير أنك تستطيع أن تلمس احتمال صدقهم عندما تستمع إليهم وهم يقصون عليك أنهم حضروا هذه وتلك من الثورات كما حدث فى حالة هذا الرجل.

وفصول السنة فى مصر تنقسم بالتحديد إلى فصول: الربيع والصيف والخريف والشتاء مثلما هى الحال عندنا - باستثناء بعض الاختلاف البسيط، فبداية فصل الربيع تبدأ - كما يظن - مع بداية شهر فبراير، وذلك لأن الهواء يصبح مع بداية هذا الشهر أكثر دفئاً بدرجة ملفتة للنظر، كما أن الأشجار التى تغير أوراقها كل عام تبدأ فى إظهار الأوراق الجديدة، وبالمثل تبدأ أشجار الفاكهة فى التزهير. وقرب منتصف شهر مارس ينضج الشعير، ويصبح القمح معدا للحصاد قرب الربع الأول من شهر إبريل، وقرب نهاية هذا الشهر نفسه تحصد كل أنواع الحبوب عادة. وتظل الأرض محتفظة بكثيرٍ من رطوبتها. حتى إنه بعد الانتهاء من حصاد القمح، يصبح فى الإمكان زراعة النيلة(١) فى نفس الحقول.

وابتداء من منتصف شهر يونيو حتى بداية شهر سبتمبر تبدأ حرارة الصيف المعهودة فى الاستقرار حتى إننا يمكن أن نسمى تلك الفترة فصل الصيف، وخلالها يبدأ النهر فى إغراق شاطئيه، وتبدو الحقول صفراء محترقة، كما تبدو الصحراء قفرا وجرداء، لا ترى فيها عودا واحدا أخضر اللون إلا فى المناطق التى تروى ريا صناعيا، لكن مع قرب نهاية سبتمبر يتغير المنظر تماما، ويبدو الوادى المأهول بالسكان وقد تحول إلى بحر لجى ممتد تتخلله جزر كثيرة صغيرة تمثل المدن والقرى.

ومع بداية أكتوبر، تنكسر حدة الحرارة بشدة، ويعود النيل أدراجه إلى مجراه، وقرب نهاية ذلك الشهر تبدأ الأشجار التى تغير أوراقها سنويا تسقط الأوراق القديمة، وما إن ينسحب النهر من الحقول حتى يبدأون فى بذرها بشتى أنواع الحبوب، ومع بداية نوفمبر تبدأ فى الاخضرار ، وعند نهاية السنة يصبح وجه البلاد كلها أشبه بالمراعى البهيجة تتخللها ألوان زاهية متنوعة، ومن ثم يبدو طبيعيا أن نطلق على الفترة من منتصف أكتوبر إلى آخر نوفمبر خريفا، وبعد ذلك يمكن أن نطلق على الفترة التى تليها حتى نهاية يناير فصل الشتاء.

إن الفارق بين أعلى درجات البرودة، وأعلى - أو بمعنى أصح - درجة الحرارة المعتادة فى الصيف، لا تزيد على ثلاثين درجة طبقا لمقياس فاهرنهايت، وكانت الحجرة التى أجريت فيها ملاحظاتى تقع

(١) النيلة أحد المحاصيل المصرية التى انقرضت وهو نبات ينتمى إلى أحد فصائل القرطم البرى، وكان حتى ذلك الوقت أحدى المحاصيل التسويقية التى تستخدم فى صباغة الثياب خاصة الحريرية منها (المترجم).

فى الطابق الثانى من البيت، حيث كانت طبقا لعادات الأتراك تستخدم لكافة الأغراض التى يبغونها - ولقد وضعت مقياس الحرارة الخاص بى وهو واحد من صناعة «رامزدنRumsden فى مكتب غير بعيد من النافذة، وعن طريقه عرفت أن درجة الحرارة فى معظم ليالى الصيف العادية كانت تتراوح ما بين تسعين إلى اثنتين وتسعين درجة، ولم تختلف عن ذلك إلا بدرجات طفيفة حتى خلال الليل، أما فى الشتاء فقد تراوحت أدنى درجة حرارة ما بين ثمانٍ وخمسين إلى ستين درجة (فهرنهايتية) كل ذلك تم داخل نفس الحجرة التى كانت خالية من أى مصدر حرارى تماما، بالطبع كانت هناك بعض الاستثناءات من آن لآخر ولكن نادرا ما حدثت، فمثلا حدث فى السابع عشر من يونيو عام ١٧٧٨ أن ارتفع مقياس الحرارة فجأة وذلك قرب الساعة الحادية عشرة ليلا ليصل إلى ١١٢ درجة، وانفجر فى ذلك اليوم مقياس حرارة به كحول كان موضوعا فوق سطح المنزل لمحاولة أخرى، ولكن هذا الحال لم يستمر إلا يوما واحدا بالرغم من أن درجة الحرارة كانت شديدة جدا خلال يومين أو ثلاثة. ولسوء الحظ حدث فى ذلك الوقت أن تعرضت قافلة كبيرة كانت فى طريقها من السويس إلى القاهرة ومحملة بالبضائع الهندية لحادثة سطو على أيدى البدو الرُحّل. وكان المسافرون فيها إنجليز - وفرنسيين وهولنديين، كلهم جردوا من ملابسهم فى الصحراء، وبذلك كانوا معرضين لحرارة الشمس القاسية من فوقهم، ولحرارتها التى تعكسها الرمال الساخنة من تحتهم، وبدون ماء أو أية مشروبات أخرى مما أدى إلى وفاة

ثمانية منهم بطريقة مأساوية، ولم يصل منهم أحد إلى القاهرة الكبرى سوى رجل فرنسى واحد اسمه المسيو سان جرمان وكان فى حالة إعياء يرثى لها، وهناك شفى وعاد إلى فرنسا بعد ذلك بوقت قليل(x).

وقد يحدث أحيانا أن يهبط مقياس الحرارة إلى ما دون الثانية والخمسين درجة. ولكن نادرا ما يحدث ذلك وخلال الفترة التى أقمت فيها التى بلغت اثنى عشر عاما لم يحدث أبدا أن وصلت درجة الحرارة إلى نقطة التجمد، وإذا حدث ذلك فإنه يكون أمرا غير مألوف ومستغرب. وهذا يتضح من الحكاية التالية التى سمعتها من تاجر أوربى عجوز روى لى أن ذلك قد حدث بالفعل منذ مئات السنين التى مضت عندما عثر على قليل من الثلج فى حفرة بالقرب من المدينة، ولأن العرب لم يسبق لهم أن شاهدوا شيئا من هذا القبيل، فقد قاموا بإحضار بعض القطع الصغيرة منه للتجار الأوربيين لأنهم لاحظوا أنهم مغرمون بشراء كل ما هو غريب. وطوال الوقت الذى أقمت فيه لم يحدث أبدا أن اشتدت البرودة لدرجة تكوّن معها الصقيع أما عن سقوط الثلج فلم أر له أثرا إلا بعد أن عدت إلى أوروبا. ولما كانت درجات الحرارة والبرودة قلما تزيد أو تنقص عن تلك التى ذكرتها آنفا فيمكن اعتبارها الدرجات المعتادة فى القاهرة، أما فى الإسكندرية فطبقا لما لاحظه أحد أصدقائى فقد تبين أن درجة مقياس

(*) يقول المستر فولنى أن هذا الحادث وقع فى شهر يناير أو خلال الشتاء ولكن لما كنت أسجل فى كراسة مذكراتى مثل هذه الحوادث الغريبة طوال الأثنا عشرة عاما التى قضيتها فى هذا البلد، فقد كنت دقيقا فى تسجيل اليوم والشهر (المؤلف)

الحرارة هناك يقل درجتين فى نفس ذات اليوم بينما تزيد فى المنيا بالصعيد بمقدار درجتين (عبر القاهرة).

ومعظم الرياح التى تهب على مصر تأتى من الشمال، ويمكن للمرء أن يذكر وهو مطمئن، أنها تهب عليها ثلاثة أرباع السنة على الأقل، وأى مسافر قوى الملاحظة يستطيع أن يلاحظ أن كافة الأشجار - خاصة تلك التى لها أغصان طويلة ورفيعة إنها دائما تميل وكافة جذوعها بشكل واضح نحو الجنوب، حتى الأشجار الراسخة العتيدة مثل أشجار الجميز لا تستطيع أن تقاوم هذا الميل بعكس غيرها وتميل نحو اتجاه مغاير. ويمكن لمن يسافر بالنيل من رشيد إلى القاهرة الكبرى أن يرى ذلك بوضوح خاصة على ضفاف النيل. وهى ليست نسيماً رقيقا إنما هى رياح دائمة لطيفة وقوية عندما تهب خاصة فى الصيف. وهى ذات فائدة كبيرة للبلاد. ويندر أن تهب رياح غيرها خلال الفترة من نهاية شهر مايو حتى نهاية سبتمبر، حتى خلال الشهور التى تلى ذلك تظل هى أكثر الرياح هبوبا. ولما كانت على العموم هى الأقوى والأقل تقلبا فى الصيف، فإن لذلك فائدة كبيرة، إذ إنها تقلل من سرعة اندفاع ماء النيل نحو البحر وبالتالى فهى تساهم فى عملية الفيضان السنوى للنيل، كما أنها مفيدة جدا للقوارب التى تقلع جنوبا على عكس تيار النهر حيث يحدث ذلك بسرعة مثيرة للدهشة، ففى ذلك الوقت يصبح إقلاع القوارب شمالا مع التيار فى النيل أصعب كثيراً من إقلاعها جنوبا عكس التيار، بل

كثيرا ما أجبرتها (الرياح) على الانتظار عدة أيام لأنها عاجزة عن الإقلاع شمالا مع التيار. وهذه الرياح باردة فى الصيف حتى إنه يصبح أحيانا من اللازم ليلا أن تثقل ملابسك قليلا بالرغم من وجود الحرارة الشديدة وقوة الشمس (نهارا)، إنها أكثر مناسبة للصيف لأنها تكون باردة، كما أنها كذلك فى الشتاء لأنها تصبح إلى حد كبير دافئة. وهواؤها يصبح نسيما عليلا عندما يهب، وهى أكثر انتظاما فى هبوبها من ناحية الشمال، غير أنها قد تغير مسارها قليلا بين الحين والآخر، وعندما يحدث ذلك بشكل واضح سواء من ناحية الشرق أو الغرب، تصبح غير ملائمة خاصة إذا هبت من ناحية الشرق.

أما الرياح الجنوبية فهى كثيرة الهبوب فى الشتاء والربيع، غير أنها نادرا ما تستمر يومين أو ثلاثة أيام على حال واحدة، فكثيرا ما تغير اتجاهها نحو الشمال، أما فى الشتاء، أى فى الفترة من بداية نوفمبر حتى نهاية يناير: فتصبح غير ملائمة وتجعل الإنسان يشعر بترهل جسمه، وتصبح لا تطاق عندما تهب ابتداء من أواسط فبراير إلى نهاية مايو، إذ إنها تصبح وقتذاك شديدة الحرارة حتى تكاد تحس أنها قد خرجت من تنور أو فرن، وفى الصيف كثيرا ما تغير اتجاهها إلى الجنوب الشرقى، وهى رياح بطبيعتها تحدث دوامات حيث تملأ الجو بكميات كبيرة من الرمال والأتربة حتى يصبح مظلما تماما. وأتذكر أننى اضطررت أن أوقد شمعة ظهيرة أحد هذه الأيام حيث كانت السحب الكثيفة تغطى السماء فى نفس الوقت. وهذا النوع من

الرياح يجعل الإنسان دائما يشعر بحرارة لا تطاق. بالرغم من أنه قد ثبت من مقياس الحرارة أن حرارتها لا تقارن بدرجة حرارة الصيف العادية، أما عن السبب فى أنها باردة شتاء وحارة فى فصل الربيع فليس هناك تفسير لذلك سوى وجود الصحارى الشاسعة الرملية إلى الجنوب والجنوب الشرقى، والتى تصبح شديدة البرودة فى ليالى الشتاء الطويلة، وبعد ذلك تصبح شديدة الحرارة بفعل قوة الشمس. ويسمى الأهالى الرياح الجنوبية باسم المريسى Merisi أما الجنوبية فيسمونها السياب Assiab أو الخمسينية Chamsi(n)er (يقصد الخماسين) وهذه الكلمة الأخيرة مشتقة من خمسين (Fifty)(*) لأن هذه الرياح عادة تستمر فى الهبوب مدة خمسين يوما ما بين عيد الفصح و أحد العنصرة Whitsunday، أما الإيطاليون فيطلقون عليها اسم سيروكو Sirocco. وعندما تهب هذه الرياح ليومين أو ثلاثة، فإنها أكثر الأحيان تقوم بتغيير اتجاهها فجأة فتتحول إلى رياح شمالية، وتستطيع أن تلمس ذلك من خلال تأثيرها على جسم الإنسان حيث يكون التنفس أكثر انسيابا، وفى اللحظة التى يكون فيها الجو كله فى حالة تأزم، تصطدم الرياح الشمالية مع الرياح الجنوبية، حتى تتغلب الأولى على الثانية ـ كما هو الحال دائما ـ عندئذ يتغير الموقف كله فى دقائق معدودات ويبرد الهواء كله فجأة كما يعقب ذلك عاصفة ثلجية فى هذا البلد. وتختفى كل الأتربة والرمال. وخلال هبوب الرياح

(*) هناك خطأ مطبعى إذ كتبت الكلمة Filthy التى تعنى قذر وهذا لا يجعل المعنى يستقيم أما رسم الكلمة الذى يتماشى مع سياق النص Fifty (المترجم).

الجنوبية لا يوجد ملاذ للاحتماء منها سوى إغلاق كل الأبواب والنوافذ بإحكام بقدر الإمكان، بل يجب إسدال الستائر، فالحجرة كلما كانت أكثر ظلاما كلما كانت أكثر برودة، حتى لو أغلقنا الحجرة بإحكام بقدر الإمكان، فإن بعض الرمال والأتربة الناعمة سوف تجد طريقها إلى داخلها ونلمسها فى كل مكان. وهذه الرياح شديدة الجفاف بطبيعتها، حتى إن كل أنواع الأثاث المصنوع من الخشب يصبح معرضا للتشقق والالتواء فى ذلك الوقت رغم كل الاحتياطات التى قد تتخذ للحفاظ عليها، وكثيرا ما توقعت فى بداية الصباح أننا مقبلون على رياح جنوبية حتى قبل أن يشعر بمقدماتها أحد، وذلك لأن الشمس وقتها تصبح ذات لون شاحب جدا مادامت مشرقة، وما إن تبدأ فى الهبوب حتى يمتلىء الجو بالأتربة والرمال، إن تأثيرها غير مقبول لجسم الإنسان فحسب، لأننى لاحظت أيضا أن أى صنف من اللحم الذى قد يتبقى سليما فى الشتاء لمدة أسبوع بفضل الرياح الشمالية، فإنه يفسد بسببها خلال يوم أو يومين بالرغم من أن درجة الحرارة قد تكون أقل فى ذلك الوقت من الوقت الأول، ومن ثم فإن هذا قد يقودنا إلى الاعتقاد بأنه لو تزامن حدوث وباء الطاعون فى هذا البلد مع هبوبها فإنه سوف يزداد انتشارا (حتى لو افترضنا أنه حمى شديدة التعفن)، أو على الأقل فإنها تنمى وتساعد على بقاء هذا الوباء، إلا أننى لاحظت أن طاعون عام ١٧٧١ كان أشد حدة، ودام فترة أطول من تلك التى استغرقها طاعون عام ١٧٨١، بالرغم من أنه خلال حدوث الوباء الأول لم تتوقف الرياح الشمالية عن الهبوب، وكان

الجو غاية فى الاعتدال، أما خلال الوباء الثانى، فقد كانت تهب علينا رياح جنوبية وجنوبية شرقية محدثة ارتفاعا كبيرا فى درجة الحرارة مما يقلل من حدة هذا الوباء. كما أن لها أيضا تأثيرا ضارا على كل أنواع الخضروات وإذا أصبحت هذه الرياح دائمة الهبوب على مصر فإن هذا البلد قلما يسكنه أحد.

وبالرغم من الكثير الذى قلته عن التأثيرات الضارة لهذه الرياح - فإنى أعتقد أن لها مزاياها فى نفس الوقت، وربما تصبح ذات فائدة أكبر لهذا البلد. فلقد لاحظت أنها لا تهب أبدا - أو نادرا ما تهب - قبل بداية شهر نوفمبر (بالرغم من أننى شاهدت هبوبها أحيانا فى شهر أكتوبر): ففى ذلك الوقت يكون النهر قد تراجع عن الحقول عائدا إلى مجراه الأصلى، وتكون الحقول موحلة بفعل الماء إلى عمق قدمين أو ثلاثة أقدام، بل إن الماء قد يتخلف طويلا فى بعض الأماكن، ومن ثم فإن رائحة نفاذة تنبعث من هذه الرطوبة الشديدة فى الأرض لتنتشر فى الجو، عندئذ يصبح هبوب تلك الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية الشديدة الجفاف مناسبة ومطلوبة. كما أن الرمال التى تغمر بها الحقول ذات فائدة كبيرة جدا للطين الذى يتخلف عن النهر بعد انسحابه، إذ تجعله أقل لزوجة، فقد أجريت عدة تجارب على الطين - وهو فى الحالة التى يتركه عليها النهر، فتبين لى أنه غير مناسب لزراعة أى نوع من الخضروات قبل خلطها (بالرمال) لأنها بطبيعتها صلبة كالحجر ما لم تزود دائما بكميات كبيرة من الماء. هكذا كم من الأشياء التى قد تبدو لنا قليلة النفع، يثبت أن لها مزايا كبيرة مما يجعلنا ندرك حكمة خالقنا الرحمن الرحيم.

أما الرياح التى تهب من الشرق أو من الغرب فهى نادرة الحدوث فى مصر، وكلتاهما غير ملائمتين، أما عن العواصف الشديدة فلم ألاحظ هبوبها هنا على الأقل حول القاهرة الكبرى والصعيد. أما فى الإسكندرية - وعلى ساحل البحر عامة - فإنها تهب مرارا ولكن ليس بالعنف الشديد، ولا لمدة طويلة كما هو الحال فى الأصقاع الشمالية (من أوروبا) أو عند خطوط العرض الجنوبية. صحيح قلما يأتى الشتاء دون أن يسبب بعض الضرر للسفن فى ميناء الإسكندرية، وأذكر مرة فى شتاء ما، جنحت أكثر من ثلاثين سفينة نحو الساحل، وتحطم كثير منها داخل الميناء الجديد لهذه المدينة، لكن لا يمكن أن نعزى ذلك إلى عنف العاصفة بقدر ما نعزيه إلى الحالة السيئة التى كانت عليها حبال هذه السفن(١)، وسوء أرصفة هذا الميناء التى كثيرا ما تتسبب فى انقطاعها مالم تؤمن جيدا وتراقب بحرص. ومن الجدير بالملاحظة أن ستاً من السفن الإنجليزية كانت راسية فى هذا الميناء القديم الذى يقع إلى الغرب من المدينة، فهو مناسب جدا ولا يحدث فيه أية حادثة من هذا القبيل إلا نادرا، لكن يحظر دخول أية سفن فيه غير سفن الأتراك وسفن رعاياهم، وذلك بسبب الاعتقاد بنبوءة تقول إن النصارى سوف يدخلون يوما ما هذا الميناء ويحتلون

---

(١) سجل دى يو - ايميه احد علماء الحملة الفرنسية على مصر نفس الملاحظة عند زيارته لميناء القصير إذ يقول: وحيث ان حبال غالبية السفن العربية رديئة - أو تصنع من التيل أو ليف النخيل مما يجعلها ضعيفة إلى حد كبير بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب - فإنها تتعرض فى بعض الاحيان لحوادث قد لا تصيب غيرها من السفن، الافضل تجهيزا انظر: وصف مصر - تاليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب الجزء الثانى مكتبة الخانجى.. القاهرة ١٩٨٠ ص٢٤٩ (المترجم)..

البلاد، وعلى ذلك فالأوربيون مجبرون على الذهاب إلى الميناء الجديد - الواقع عند الجهة الشرقية بالرغم من أنه أقل كفاءة من الآخر.

ويطلق سكان مصر على الرياح الشمالية اسم «دياب»، وقد ابتكروا طريقة لجعلها تجرى وتتدفق داخل بيوتهم، ومن أجل ذلك فإنهم ينصبون نوعا من المصدات الهوائية فوق الأسطح المطلة على الفناء الذى هو بالنسبة للبيوت الضيقة يمثل صحن الدار. وقلما يخلو بيت - مهما كبر أو صغر من هذا «الفناء»، أما مصيدة الهواء فهى تتجه دائما نحو الشمال بهذا الشكل «٦» فإذا عجزوا عن توجيهها بالضبط نحو الشمال فإنهم يثبتون أحد أطرافها - وأحيانا كلا الطرفين - بحيث تكون فى الاتجاه المضبوط لاصطياد الريح، التى يوجهون مسارها إلى أسفل.

أما الرياح الجنوبية فإنها تمر من فوقها وهذا يؤكد أنهم لا يخشون هبوب العواصف وإلا اكتسحت هذه المصايد فى لحظات لأنها تعترض طريقها. كما يوجد لديهم نوع من القباب الصغيرة المقامة فوق كل جزء منفصل عن البيت، وبكل واحدة فيها طاقة صغيرة تنفتح نحو الشمال لتؤدى نفس الغرض.

ليس فى مقدورنا الجزم بأن المطر لا يسقط بتاتا فى مصر شتاء، غير أن ذلك هو الواقع بالفعل، فحتى لو حدث، فعلى مدى سنوات عديدة مضت تبين أن كل الأمطار التى سقطت على القاهرة الكبرى

وجنوبها لم يتعد متوسط هطولها ساعة زمن واحدة، حتى لو سقطت بعض بقايا المطر شتاء أو ربيعا، إلا أنك تكاد تحس أن هناك شيئا ما يعوق سقوط المطر، إذ لا تستمر سوى بضع دقائق قليلة، ولكن بالرغم من أن هذا هو الحال عامة، إلا أنه حدث ذات مرة خلال إقامتى فى نوفمبر عام ١٧٧١ أن سقط المطر غزيرا فى شكل وابل يتلوه آخر مصحوبا بالرعد، واستمر على ذلك الحال لمدة خمس ليالٍ متتالية، بالرغم من أنها كانت تتوقف عن الهطول نهارا، ولما كانت المنازل غير مجهزة لذلك فقد كان من الصعب علىَّ أن أجد بقعة واحدة جافة فى بيتى كى أنام فيها، وبسبب ذلك فقد انهارت بعض المنازل، وسقط ضحايا عديدون، غير أن ذلك كان حادثا استثنائيا جدا، ولا يمكن أن يحدث إلا فى الشتاء والربيع. ولا يتوقع أحد سقوط المطر خلال الفترة بين نهاية مايو حتى نهاية أكتوبر، وخلال تلك الفترة ينعدم حدوث البرق بكل أشكاله كما ينعدم بدرجة أكبر هبوب العواصف الرعدية وهذه الأخيرة ليست مخيفة فى مصرعلى وجه العموم. وفى الشتاء قد يبدو الجو أحيانا كأن عاصفة رعدية رهيبة فى طريقها للهبوب، ولكن لا تكون أبدا بمثل هذا التوقع، ولا يصاحبها رعد ذو هدير عالٍ جدا، وأنى لأذكر أننى مرة واحدة لمحت ومضة برق تشبه فى قوتها ذلك الذى يحدث عندنا فى إنجلترا، ويسخر الأهالى من فكرة حدوث برق يؤدى إلى اشتعال النيران فى البيوت وموت الناس والحيوان، ويعتبرون ذلك ضربا من ضروب الأساطير الخيالية عندما يقال لهم إن ذلك يحدث فى أوروبا. كما لا يحدث أبدا سقوط وابل من البرد، لكن أحيانا شاهدت فقط حبيبات صغيرة منه

فى حجم رش البندقية الكبير مختلطة بالمطر فى فصل الشتاء.

ويتكرر سقوط المطر خلال الشهور من نوفمبر حتى انتهاء فصل الربيع، ويكون أحيانا غزيرا عند ساحل البحر، غير أنه نادرا ما يزيد كثيرا على نصف درجة فى أعالى البلاد، وهنا تتجلى حكمة تدبير الله مرة أخرى، إذ إن النيل لا يتمكن من غمر كافة المناطق القريبة من ساحل البحر بسبب تفرعه إلى قنوات كثيرة. ولذا فإن هذا المطر الغزير يكفى لتعويض ذلك النقص، إن من يشاهد الأراضى حول الإسكندرية فى الصيف لا يصدق أنها قادرة على إنتاج ورقة واحدة من النبات، وإذا ما تعمقت فى أغوار ريفها سوف تصدم من ادعائها الخصوبة، غير أن تلك الأراضى التى تبدو من مظهرها أنها فقيرة للغاية، قادرة بفضل هذا المطر الغزير على إنتاج قمح جيد وبرسيم للماشية وكافة أنواع الخضروات. لكن يندر سقوط المطر عليها فى فصل الصيف مثلها فى ذلك مثل أية بقعة أخرى من أرض مصر.

ومن شهر فبراير إلى بداية شهر يوليو يصبح الهواء جافا للغاية فى مصر، وباستثناء قطرات المطر التى قد تسقط هنا وهناك فى أول هذه الفترة، لا تشاهد أية شبورة من أى نوع، وخلال هذه المدة يستطيع أى إنسان أن ينام بأمان فى الهواء الطلق فوق أسطح البيوت. ومع بداية شهر يوليو ينزل قليل من الندى كل صباح، ثم يزيد كلما زاد فيضان النهر ويصبح كثيفا عندما يصل النهر إلى أعلى درجات الفيضان، كما يستمر نزوله أيضا خلال فصل الشتاء إلا عندما تكون

هناك رياح جنوبية، ومن آن لآخر يتصادف أن يكون أحد الأيام كثير الضباب، غير أن ذلك نادر جدا، وما إن يبدأ الندى فى النزول فى يوليو، حتى يصبح النوم فى الهواء الطلق غير صحى، لأنه يحدث الضرر خاصة للعيون. وبالرغم من أن الأدوات المصنوعة من الحديد فى مصر - باستثناء ساحل البحر - تبقى سنين طويلة دون أن تصدأ رغم قلة العناية بها. إلا أنها يجب ألا تتعرض طويلا للندى، ولا بد من غلق النوافذ على الأقل أثناء الليل للحفاظ على بقاء مثل هذه الأشياء.

وخلال شهر يونيو، يمتلئ الأفق كل صباح بسحاب كثيف حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحا، خاصة عندما تكون الرياح شمالية، ثم تقوم هذه الرياح بدفعها بسرعة نحو الجنوب، وليس ببعيد عن الاحتمال أن تساهم بذلك هذه الرياح فى النهاية فى سقوط الأمطار الاستوائية. أما الندى الكثيف الذى كثيرا ما يسقط خلال فصل الشتاء، فهو ذو فائدة كبيرة للخضروات، وبالرغم من أنه ليس هناك حاجة ماسة لسقوط المطر فى هذا الفصل لكى يكون العام عام وفرة ورخاء، إلا أن الأهالى يحبون أن يسقط قليلا منه فى ذلك الوقت خاصة من أجل زراعات البرسيم الذى يساعد المطر على نضارته، وتنضج أغلب الخضروات خلال فصل الشتاء، ففى الصيف لا شىء ينمو فى الأراضى ما لم تكن تروى ريا صناعيا.

وبالرغم من أن درجة البرودة ليست عالية جدا فى الشتاء إذا ما قسناها بالترمومتر، إلا أن البرد قارس، خاصة مع هبوب الرياح الجنوبية، ولعل السبب الرئيسى الذى يجعلنا نحس به على هذا

النحو، هو أن الجسم يكون قد تعود طوال الصيف على إفراز كثير من العرق القوى مما يجعله رطبا، بالإضافة إلى ذلك فإن البيوت مصممة بحيث تحول الحرارة الشديدة إلى درجة محتملة، وليس لمنع البرد إذ لا يوجد فى أى جزء من أجزاء البيت مدفأة لتدفئته بالقدر المطلوب، وكل إنسان فى مقدرته أن يرتدى فراء فى الشتاء، غير أن درجة الحرارة التى قد تبدو لا تطاق فى بلادنا، تبدو مناسبة فى مصر إلى درجة كبيرة، لأن هواءها عادة شديد الصفاء ويخلو من بخار الماء، وفى نفس الوقت تساعد الرياح الشمالية على جعله منعشا.

وفى الربيع تبدو السماء صافية كما فى أى مكان آخر، ولا شك أن ذلك كان ذا فائدة عظيمة لعلماء الفلك القدماء، ويمكن أن يكون كذلك لهم الآن لو كان فى استطاعة السكان الحاليين المقدرة على استغلال الظروف كما ينبغى، إلا أنه يبدو أن علماء الفلك القدماء قد تدهور بهم الحال الآن ليصبحوا منجمين دجالين!.

ومن واقع كل هذه الملاحظات، وبالإضافة إلى تجارب كثير من الأوروبيين الذين سكنوا مصر من وقت لآخر، تبدو (مصر) واحدة من أكثر البلدان مناسبة للصحة فى العالم، صحيح يوجد أعداد كبيرة من الناس الذين فقدوا البصر فى هذا البلد لأن مناخه يسبب ضررا للعيون، كما لاحظت أيضا أن حمى العفن والحمى الصفراء تنتشر فى فصل الربيع بين بعض طبقات الشعب، خاصة فى شهرى مايو ويونيو، وأظن أن تفسيرا معقولا جدا يمكن أن يفسر حدوثها، فكثيرا

ما يعانى الناس الذين جلبوا على عادات سمجة، وأجسامهم ممتلئة بالسوائل من التهاب العيون. حقا أن ضوء الشمس الساطع والقوى، وشدة جفاف الهواء فى بعض أوقات السنة، والرمال الناعمة والأتربة التى تجلبها الرياح الجنوبية معها لابد أن تكون مصدر الضرر لقدرة العيون على الإبصار، ولكن بقليل من الحرص والحيطة نستطيع أن نتجنب هذه الأوبئة. وأغلب الذين فقدوا البصر هم من الطبقات الدنيا، ومن طريقة معيشتهم نستطيع أن نتفهم سبب ذلك: وفى كل مكان نجد التربة المصرية شديدة التشبع بالمواد الملحية من أنواع مختلفة مثل ملح الصخور والملح العادى، ونوع ثالث يسميه الأهالى «النطرون»، وهو ملح لاذع الطعم بدرجة كبيرة، ولأن مناخ البلد شديد الجفاف فإنه لا يخلو بتاتا من الأتربة، وكما ذكرنا آنفا فإن الندى الذى يسقط خلال فيضان النيل يؤذى العيون بدرجة شديدة. وفى مواجهة ذلك قلما تقوم الطبقات الدنيا باتخاذ الحيطة على الإطلاق، إذ كثيرا ما تراهم نائمين فى الحقول فى الخلاء، وكذلك فى الطرقات، وهم شبه عراة تحت أشعة الشمس المحرقة وقد غطاهم التراب تماما، ونفس الشىء يفعلونه فى الليل تحت هطول الندى، ولذا فإن إصابتهم بالتهاب العيون وغيرها من الأوبئة هى نتيجة طبيعية لتصرفاتهم، بل إن المرء ليتعجب لماذا لا تنتشر الإصابة بهذا المرض على نطاق أوسع!

ونفس الشىء يمكن أن يقال عن حمى التعفن، والحمى الصفراء،

التى سبق الإشارة إليها مع فارق بسيط وهو أن هذين النوعين من الحميات يصيبان علية القوم خاصة من طائفة المسيحيين. وهناك سببان مقنعان لذلك: أولهما أنهم يمارسون الصوم الكبير - والذى يسبق عيد القيامة - بصرامة ولمدة أربعين يوما لا يتناولون خلالها سوى الخضروات المضاف إليها قليل من الزيوت، ونتيجة لذلك فإن المعدة تصبح ضعيفة، وما إن ينتهى الصوم حتى يبدأون فى إعداد الولائم، إنه لمن المدهش أنهم يعبئون المعدة الهزيلة بكل هذه الأطعمة الثقيلة من البيض المسلوق جيدا، والكعك المغرق فى حلاوته، إلى جانب أنواع اللحوم المختلفة.

أما السبب الثانى فينطبق على الأتراك مثلما ينطبق على الطبقة الموسرة من المسيحيين. وهو أنهم فى الشتاء يتدثرون بفراء، بل إن بعضهم يتدثر بزوجين من الفراء في وقت واحد، وعندما يسرى الدفء فيهم فإنهم يخلعونها مرة واحدة وبدون فطنة، بل إنهم عادة يتجهون إلى البهو الكبير الذى تتوسطه نافورة صناعية والذى يوجد عادة فى الطابق الأرضى فى منازلهم ويجلسون فيه دون حذر بعد أن يكون الدفء قد سرى فى أوصالهم، وهذا يكفى لإصابتهم بالحمى، بل لقتلهم على الفور.

ولو أن بلدا ما به أمراض غريبة بسبب فساد الهواء، أو لغير ذلك من الأسباب، فإن هذه الأمراض عادة تهاجم الأجانب قبل أن تهاجم الأهالى الذين يكونون قد تعودوا عليها،، غير أن الحال فى مصر

يختلف، إذ إنه في اعتقادي دائما أنه لا يجب أن نعزى هذه الأمراض إلى البلد، بل إلى استهتار أهله، لقد كنت أعتبر دائما أن ذلك الوقت من السنة هو أكثرها ملاءمة للصحة، إذ إنه على الخلاف من بلداننا - فهو أكثر فصول السنة جفافا، والحرارة تزداد فيه بالتدريج البطيء اللهم إلا في بعض الأيام التي تهب فيها الرياح الجنوبية، كما أن ما يتعرض له جسم الإنسان من أحاسيس مختلفة بسبب الطقس كما هو شائع لدينا في الربيع لا أثر له هنا، ونفس الشئ يحدث في الخريف، فبعد هطول العرق المستمر والكثير لعدة أشهر، تتدخل الطبيعة في الحال لتجد له طرقا أخرى للتخلص منه.

والسماء - كما سبق لنا ملاحظة ذلك - ليست صافية تماما في هذا البلد، كما قد يخطر على بال بعض الناس، إذ إنها كثيرا ما تكون ملبدة بالغيوم الكثيفة والثقيلة لدرجة أنها لو بدت كذلك في بلادنا لظننا أنها توشك أن تمطر مطرا غزيرا، لكن هنا لا يوجد خوف من ذلك إلا في بعض الأوقات في فصل الشتاء كما سبق أن بينت، وكل العلامات التي عادة تنبيء بتغير في الطقس في أوروبا كظهور هالة حول القمر.. الخ، والتي هي ظاهرة متكررة الظهور في مصر، لا يتبعها أي تغير معين في الطقس، إنما تكون مجرد وجود بخار الماء في الجو.

لن أحمل نفسي طاقة البحث عن سبب قلة سقوط الأمطار على المناطق الجنوبية من مصر، في حين أننا نجد بلدانا أخرى تقع على

نفس خط العرض وتبعد ستين أو سبعين ميلا فقط إلى الشرق منها مثل صحراء شبه الجزيرة العربية - يسقط عليها مطر كثير فى الشتاء، بل تسقط الثلوج على المناطق الجبلية منها خاصة فى الأجزاء الجبلية المحيطة بشبه جزيرة سيناء، ولعل ذلك يرجع إلى حد كبير لوجود الجبال العالية، لكن فى مصر أيضا يوجد ما يكفى من الجبال، بعضها لا يمكن تجاهل ارتفاعه بحيث تكون قادرة على جذب بعض الرطوبة إليها، فالصحارى الممتدة التى تفصل بين البحر الأحمر والنيل، وكذلك الصحراء الليبية، ليس فيها سوى الجبال التى تحصر فيها مساحات ضيقة غير مأهولة بالسكان يجرى فيها نهر كبير يقطعها طولا، إلا أن ظاهرة ندرة المطر فى الغالب وملاحظة ما يشبه العائق الذى يمنع سقوطه تظل طلسما فى نظرى حتى وإن سقط القليل منه بين الحين والآخر.

الفصل الخامس

بعض التأملات حول صعود البخار وتحوله إلى سحب وأمطار

اختلفت النظريات حول حدوث البخار وتصاعده، ثم تحوله إلى سحب وأمطار، غير أننى لم أجد نظرية واحدة حتى الآن تقنعنى، وذلك لأن أغلبها قام على مجرد الافتراض.

من اليسير أن نقول إنه يتصاعد لأنه ينتشر فتقل كثافته فيصبح أخف وزنا من حيز الهواء الذى يشغله، ولكن كيف يتأتى له أن يصبح أخف وزناً من الهواء؟ وماذا نفهم من القول بأن كثافته قد قلت؟ وكيف يتم حدوث هذا التغير فى تركيب الماء؟.

إن الماء جسم يكاد يكون غير قابل لأن يضغط، وهو أثقل بمراحل من الهواء بالرغم من أنه قابل للتمدد قليلا، وهذا يمكن ملاحظته إذا وضعناه فى مضخة تسحب الهواء إلى الخارج، والماء مهما ضغط فلن يصل أبدا إلى درجة تجعله مساويا فى خفة وزنه لنفس كمية الهواء الذى يساويه فى الحيز، ويصعب علينا أكثر أن نجعله أقل وزنا من الهواء حتى نجعله يسبح فيه كما نلاحظ فى حالة السحاب!

وإذا قلنا إن الماء يتمدد بشكل ملحوظ بفعل حرارة النار، وينتج عن ذلك تصاعد البخار منه. فهل لنا أن نقول إنه لا يستطع الصعود إلى طبقات الجو العليا قبل أن تحدث له عملية التغيرات التى أحدثها فيه النار؟ ولما كانت طبقات الجو العليا فى العادة أكثر برودة فإن كل ما يتمدد وارتفع بفعل الحرارة سوف ينكمش ويثقل بفعل البرودة عندئذ يعجز عن القدرة على السباحة فى الهواء.

وبناء على ذلك فقد دفعتنى عدة ملاحظات أن أتوصل إلى الاعتقاد بأن جميع أنواع الأبخرة تتكون من ذرات دقيقة كروية الشكل أو

فقاعات صغيرة لدرجة لا تدركها العين، وهى مملوءة إما بهواء متمدد أو هواء (غاز) قابل للاشتعال، ونتيجة لذلك تصبح أقل وزنا من حيز الهواء الذى تشغله، ومن ثم تصبح قادرة على أن ترتفع إلى أعلى أكثر فأكثر حتى تصل إلى درجة من الارتفاع يتساوى فيه وزنها مع وزن الهواء الموجود فى طبقات الجو العليا. وعندما تتجمع لدرجة أنها تتزاحم وتحتك بعضها ببعضٍ، أو تدفعها الرياح إلى طبقات الجو العليا فتتصادم وتنفجر وتتساقط، ولو حدث أن سقوطها وقع على غيرها الذى هو من تحتها فإن ذلك سيؤدى إلى انفجارها أيضا، وعندما تتجمع المياه التى تحملها وتتحول تدريجيا إلى قطرات ماء كبيرة الحجم تتساقط فى شكل المطر، كما فى كثير من الأحيان.

ولست أدعى الجزم، ولا فى استطاعتى الزعم، أننى على يقين أنها كلها مليئة بالغاز (الهواء) سريع الاشتعال، لأن بعضها - كما يخيل لى - ملىء بالهواء المتمدد، وذلك فى ضوء التحول الذى حدث، وأدى إلى سقوطها مطرا، وأعتقد أن لدى ما أقدمه من مبررات لتفسير الأسباب التى تجعلنى أعتقد أن هذين الافتراضين يقومان على أساس صحيح.

فلو وضعنا ماء فى إناء مكشوف على النار، فإننا سرعان ما نشاهد صعود فقاقيع من قاع الإناء، وهى لا يمكن أن تكون مليئة بشىء آخر غير الهواء المذاب فى الماء، والذى يكون فى تلك اللحظة قد تمدد بفعل حرارة النار. وهذه الفقاقيع ما إن تصل إلى سطح الإناء حتى تنفجر لأن حجمها كبر ولم تعد قادرة على حبس الهواء الذى بداخلها

والذى لم يقدر على جعلها تتصاعد إلى أعلى. وكلما زادت درجة حرارة الماء كلما زادت هذه الفقاقيع أكثر فأكثر، عندئذ يتصاعد بخار لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، والذى - على ما يبدو لى - ليس سوى فقاقيع دقيقة الحجم ممتلئة بالهواء المتمدد وبالتالى فهى أكثر قدرة على البقاء لوقت أطول من الفقاقيع الكبيرة وذلك يساعدها على أن تسبح عاليا فى الجو بقدر ما يسمح به التوازن. وبناء على ذلك فإنى أميل إلى الاعتقاد بأن كل أنواع البخار الذى يتصاعد من الماء النظيف بفعل الحرارة ما هو إلا فقاقيع مملوءة بالهواء المتمدد، أما تلك (الفقاقيع) التى تتصاعد من المستنقعات والبرك الراكدة فإنها ربما تكون مليئة بالغازات (الهواء) القابلة للاشتعال، ومن يدرى لعل هذا النوع الأخير يوجد فى بعض أنحاء الكرة الأرضية، وهو فى بعض الأماكن ظاهر للعيان مثل مناجم الفحم، وأحيانا نلحظه من خلال تحرك الأمعاء. لكن ليس لدينا المعلومات الكافية عن الأماكن والوسائل التى تؤدى إلى تكونه.

وكما سنرى فإن الهواء (الغاز) القابل للاشتعال يكون موجوداً إذا حدث تحرك بطىء للأمعاء. لكن هل لنا أن نتصور أن البحر - الذى هو بلا شك - مصدر الجزء الأكبر للبخار يخلو منه؟ فلا أحد يستطيع الإنكار أن أعداد الأسماك التى تموت فيه والتى لا حصر لها، بالإضافة إلى إفرازاتها وهى على قيد الحياة مع غيرها من الحيوانات الأخرى، وكذلك المواد الغريبة الأخرى التى تحملها الأنهار إليه، لابد أن تسبب عفونة تتصاعد فى شكل غازات كتلك التى تصدر من الأمعاء وهى تتحرك.

ولو أن جسما ذا طبيعة رطبة، وفى نفس الوقت يحتوى على قدر كبير من الهواء - كالتفاحة مثلا - وضعناه تحت شفاطة ماصة، وسحبنا منه الهواء، فسوف نلاحظ توالى ظهور فقاقيع صغيرة مليئة بالهواء، فإذا كان هذا التفاعل واضحا جدا فى هذا المثل. فلماذا لا نطبقه بالمثل أيضا على الغاز (الهواء) القابل للاشتعال الحبيس فى المستنقعات والأراضى الموحلة بنفس القدر على الهواء النظيف الذى حدث له تمدد بفعل الحرارة؟ إن الذى يساعد البخار على التصاعد فى كلتا الحالتين هو أن ما بهما من هواء أخف وزنا من الهواء فى حالته العادية.

وهكذا فإن زخات المطر المصحوبة بالرعد كثيرا ما تحدث بعد مشاهدة البخار وهو يتصاعد من الأرض فى يوم صيف حار، ولم ألاحظ حدوث ذلك فى أى مكان آخر، وبشكل أقنعنى، مثلما لاحظته فى أمريكا الشمالية، إذ كثيرا ما تحدث هناك شبورة فى أحد أيام الصيف، وما إن تصعد الشبورة وتتحول إلى سحاب حتى يتلو ذلك حدوث عاصفة رعدية بعد سويعات قليلة، وكثيرا ما لاحظت أن السحاب يستمر أثناءها فى تحركه من الغرب إلى الشرق فى نفس اتجاه كافة زخات المطر التى تحدث فى ذلك البلد. وفى ضوء ذلك خمنت أن هذه السحب التى أدت إلى سقوط المطر لا يمكن أن تكون قد جاءت من ناحية أى بحر، لأنه لا يمكن أن تكون قد عبرت قارة كبيرة خلال هذا الوقت القصير، وهذا - على الأقل - جعلنى أعتقد أن

معظم هذه الأبخرة التى أدت إلى تكون هذه السحب تصاعدت من الأرض. وكما يتضح عند حدوث الرعد الممطر، فإن جزءا كبيرا من هذه الفقاعات - ولا أقول كلها - تكون مليئة بالغاز (الهواء) القابل للاشتعال وذلك لأننا نجد المطر ينهمر دائما بغزارة شديدة عقب حدوث ومضة قوية من البرق.

وبعد التجارب العديدة التى أجريت على الهواء (الغاز) القابل للاشتعال فكرت على النحو التالى: لو افترضنا صحة الرأى السابق وهو أن السحب الرعدية تتكون من فقاعات صغيرة بعضها مملوء بالهواء المتمدد والبعض الآخر مملوء بالغاز القابل للاشتعال، وأنها عندما تتكاثر فى أعدادها حتى تتزاحم وتتصادم مع بعضها بعضا، أو تكتسحها الرياح أمامها إلى طبقات الجو العليا (يلاحظ هبوب مثل هذه الرياح فى ذلك الوقت وهى غالبا ما تأخذ اتجاها معاكسا لمثيلاتها التى تهب على النصف الجنوبى للكرة الأرضية)، عندئذ يحدث انفجار كثير منها فى وقت واحد، وبالتالى يؤدى ذلك فى أغلب الأحوال إلى سقوط وابل من المطر الغزير، أما إذا تصادف وكانت مليئة بالهواء القابل للاشتعال، فإنه ينطلق منها بكميات كبيرة، ويكون معرضا فى الغالب للاشتعال بفعل الشحنة الكهربائية الموجودة بكثرة فى السحب الرعدية فى طبقات الجو العليا. وعلى الفور تنفجر مزيد من الفقاعات يتلوها بالقطع هطول الأمطار الغزيرة، وبسبب وجود الهواء المشتعل المختلط بها تندلع النيران بفعل الشحنة

الكهربائية، ومن ثم، فلا عجب أن تشتد قوة البرق ويصبح بريقه أشد لمعانا، إن الاضطراب والتصادم الذى يحدث للهواء بفعل حدوث ومضة واحدة قد يؤدى إلى مزيد من حدوث انفجارات الفقاقيع الأخرى التى يتصادف أن تكون مليئة بنفس هذا الهواء، ومن ثم يصبح هذا الهواء عرضة للاشتعال كما حدث فى المرة السابقة. وهكذا كثيرا ماتحدث ومضة كبيرة للبرق يتبعها ومضة أخرى. فمن المعروف أن المستنقعات والبرك الراكدة مليئة بالهواء القابل للاشتعال الذى يتحول إلى بخار يتصاعد فى الصيف. أو عند حدوث طقس دافئ، غير أن البعض قد يتساءل كيف يمكن فى الشتاء للهواء العادى أن يتمدد وللهواء القابل للاشتعال أن يتكون، خاصة أننا نشاهد حدوث البرق من وقت لآخر فى هذا الفصل من السنة؟ إن الرد على ذلك يكمن فى توجيه سؤال مضاد وهو كيف لنا أن ندرى أن بخارا قد صعد وإلى أية مسافة صعد إلى طبقات الجو العليا فى الشتاء ليصبح سحابا فوق رءوسنا؟. بالطبع لن يتصاعد أى منها من البرك والمستنقعات المتجمدة فى يوم فيه صقيع، كما أننا قلما نشاهد حدوث البرق فى الشتاء ما لم يكن الجو قد مال إلى الدفء قبل حدوثه كما أن البخر يمدنا بما فيه الكفاية.

ومنذ أن دونت هذه الملاحظات السابقة، أكدت التجارب التى أجراها المستر لافوازييه Lovoisier تؤكد صحة ما ورد فى أفكارى (ارجع إلى دوريه Monthly Review حيث نشر فى تقرير مبدئى عن الكيمياء Elementary Treatise on Chemistry أن الماء العادى يتكون من ٨٥ جزءا من الأوكسوجين و١٥ جزءا من الغاز القابل

للاشتعال (يقصد الهيدروجين)، فإذا كان ذلك هو الحال مع ماء الأنهار العادية، فلابد أن تكون نسبة الغاز أعلى بكثير في ماء المستنقعات والبرك وغيرها من مصادرها المياه غير النقية. وبعد السابع عشر من يونيو يبدأ سقوط المطر على الحبشة عندئذ يبدأ البخار يتصاعد في مصر. وهذا أتاح لي مجالا كبيرا للتأمل. وكانت الملاحظات التي دونتها دائما في صالح النظرية التي سبق ذكرها بالرغم من أنها آنذاك لم تكن واضحة بالقدر الذي هي عليه الآن بعد أن اجُريت العديد من التجارب على الغازات القابلة للاشتعال وفي الإمكان متابعة فيضان النيل وهو يزيد تدريجيا حتى يغمر شاطئيه، وقد لاحظت أنه في اللحظة التي يغمر فيها الأرض الجافة يتصاعد منها غازات تثير الأمعاء، كما أنه يجعل بعض المواد العالقة تطفو على سطح الماء حيث تصدر رائحة نفاذة مما يؤكد تصاعد أبخرة منها إلى طبقات الجو العليا، ومن المؤكد أن كميات كبيرة من الغازات القابلة للاشتعال تتكون بهذه الطريقة. وهذا يعني أن هذه الأبخرة المتصاعدة تحتوي على كميات كبيرة منها. ويحضرني أنني ذات مرة كنت أستمتع بالهواء العليل في قارب يسير على صفحة النيل حيث كانت ريح الشمال تهب علينا في نفس الوقت الذي كان فيه (النيل) في مرحلة الفيضان، وتوقفت عند جزيرة صغيرة كان الفيضان على وشك أن يغمرها، ونزلت من القارب لأتفقد أرض هذه الجزيرة، غير أن رائحة مقززة مصدرها ماء النيل الذي لحق ببعض أعواد البوص الساقطة أجبرني على العودة سريعا إلى القارب، حيث وصلت إليه

بصعوبة، فقد اعترتنى حالة غثيان جعلتنى أستلقى وأغط فى نوم عميق حتى رجعت إلى بيتى، وفى الحال خمنت أننى لابد أن أكون قد استنشقت قدرا كبيرا من هواء غير صالح للتنفس، بل انتابتنى أعراض الحمى طوال يومين تاليين حتى أخذت الطبيعة مجراها ولفظته من خلال حالة اسهال شديد تركتنى فى حالة إعياء تام، إلا أننى عوفيت بعدها، ولما كنت قد ذكرت هذه الحقيقة من قبل وهى أنه لا يمكن ملاحظة صعود الأبخرة إلا بعد منتصف شهر يونيو، فليس من المستبعد أن يكون بداية سقوط المطر على الحبشة - وهى أرض قفر - هو الذى يسبب حدوث حالة من التعفن يصدر عنها أبخرة بنفس الطريقة السابقة ويتشبع بها الماء الذى ينساب فى مجراه نحو مصر وتكون قابلة للاشتعال بدرجة أكبر عن ذى قبل، وهذا يتسبب بدوره فى بداية سقوط الندى بعد أن تكون قد وصلت إلى هذا البلد، لأنه كما لوحظ من قبل أنه كلما زاد النيل فيضانا كلما زاد الندى سقوطا كل صباح حتى يتحول إلى ما يشبه الشبورة الممطرة فى نفس الوقت الذى يكون النيل قد أغرق البلاد تماما.

ومع ذلك فلست أبغى من وراء ذلك أن أضع نظرية تعارض النظريات الأخرى التى وضعها رجال يفوقوننى نبوغا وخبرة، لكنها مجرد ملاحظات سجلتها كأفكار غير ناضجة، لكنها قد تكون قابلة لبحث أفضل، كما أن تلميحاتى قد لا تجد قبولا لدى بعض العلماء والفلاسفة النابغين حتى وإن كان بعض منها قد قام على أساس راسخ.

الفصل السادس

نموذج من عدالة الأتراك

أو بالأحرى

عدالة المماليك فى مصر

خلال إقامتى فى القاهرة الكبرى سكنت حيا من أحياء المدينة منعزل وقائم بذاته[1] ولا يبعد كثيرا عن القناة التى تقطعه طولا والتى تصبح - من منتصف أكتوبر حتى يونيو الذى يليه - ذات رائحة كريهة وذلك بسبب تزايد الصرف الذى يصب فيها من دورات المياه[2]، والقاذروات التى تلقى من البيوت القريبة والمجاورة. ولما كانت إقامتى فيها ذات طبيعة استجمامية فى المقام الأول، فسرعان ما تبين لى أن مزاولة الرياضة بانتظام فى الهواء الطلق أمر ضرورى وحيوى بالنسبة لى للحفاظ على صحتى. ومن أجل ذلك فقد تعدد ذهابى إلى الحقول المجاورة للمدينة. وعندما تخف حرارة الطقس، كنت أشعر - عندما لا أجد هدفا يشغل طاقتى - أننى أميل دائما إلى الجلوس تحت ظل شجرة - غير أن هدفى يذهب عبثا، ولكى أجد علاجا لذلك، كنت آخذ معى فى بعض الأحيان بندقية الصيد الخاصة بى، وبالذات فى فصلى الشتاء والربيع حيث تكثر طيور الصيد مثل الشنقب (Snipes) والبط البرى، والأوز، والكروان، والسمان.. الخ. وعلى الأخص دجاج الماء، حيث تجد كل فئات المجتمع المتعة فى صيدها، أما الأتراك أنفسهم فقد كانوا غير آبهين أن يكلفوا أنفسهم مشقة صيدها. ولما كان البكوات وغيرهم من رجال السلطة يخرجون عادة وفى بطانتهم موكب كبير (من الحاشية) عندما يغادرون المدينة، ولذلك كان فى

(١) يقصد حى الأفرنج وكان يقع بالقرب من حى بولاق وقد أنشىء له فى عام ١٧٢٠ سور لعزله عن الأحياء الأخرى وتم انشاء بوابة له عام ١٧٥٧، أنظر ريمون، المرجع السابق ص٢٥ (المترجم).

(٢) اندريه ريمون: نفس المرجع ص ٥٦ - ٥٧، ص ٢٠١ (المترجم).

الإمكان مشاهدتهم من مسافة كبيرة، وكذلك بسبب طبيعة البلاد المنبسطة. وعلى ذلك فقد كنت عادة أتجنب الاقتراب من أى واحد منهم إذا ما شاهدته، وذلك لعلمى مدى استعدادهم فى العثور على بعض الادعاءات أو غيرها من أجل ابتزاز المال خاصة من الأوروبيين الذى كانوا دائما يشكون من كونهم أثرياء. وبهذه الطريقة نجوت من الوقوع فى شراكهم لأكثر من تسع سنوات، حتى وقع المحظور فى الخامس من شهر نوفمبر عام ١٧٧٩ يومها كنت قد خرجت لممارسة رياضتى المعتادة، وكان فى صحبتى سكرتير قنصل جمهورية البندقية، وكنا على وشك من امتاع أنفسنا بصيد الطيور على طول الطريق ونحن عائدان إلى بيتينا، وعندما اقتربنا من البوابة، كان أمامنا نصف ساعة كامل قبل أن تغيب الشمس، غير أن بعض المماليك الذين كانوا فى بطانة واحد يدعى عثمان بك كانوا على مقربة منا، فوقع بصرهم علينا بالرغم من أن بعض تلال القمامة كانت تحجبهم عن أبصارنا، وكانت هذه التلال كثيرة وقائمة حول القاهرة، بعضها بلغ من الارتفاع حتى أنك تكاد تشاهد المدينة كلها من فوقها(*) وفجاة أقبل فارسان يندفعان نحونا، وقد أمسك كل واحد منهما بسيفه فى يده وشهره فى وجوهنا. ومن خلفهما سار بعض الجنود المشاة، وفى الحال جردوا كل واحد منا من معطفه وشاله» ومن كل شىء كان فى حوزتنا له قيمة وطالبوا بدفع «مائة مقبولة» (Machbul) أو شيشن تركى Schechines الذى قيمته حوالى سبعة

(*) كان السلطان يخصص مبلغا معينا لنقل القمامة التى تنتج عن البيوت العتيقة التى تم هدمها - إلى البحر ولكن البكوات وجدوا أنه لمصلحتهم أن تذهب هذه الأموال إلى جيوبهم الخاصة، ولهذا كانوا لا ينقلون القمامة بعيدا إلى الحد اللازم المطلوب (المؤلف).

شلنات وستة بنسات، مهددين إيانا بعرض أمرنا على سيدهم ما لم ندفع المال فى الحال، وإلا سوف نرى ماذا يحدث لنا، ولقد أخبرتهم أنه ليس فى حوزتنا هذا المبلغ، ثم أخرجت حافظة نقودى وقدمتها لهم، فأخذوها فى أول الأمر ولكن عندما تبين لهم أن كل مافيها لا يزيد على خمسة وعشرين شلنا من القطع الفضية الصغيرة ألقوا بها باحتقار وهما يصيحان «ذهب!» ولما كنت أعلم أننى اتوقع منهما سوء المعاملة، قلت لهما، إنى لا أحمل الذهب معى الآن، ولو جاءا معى إلى بيتى سوف اعطيهما بعضا منه، وعند سماع ذلك تعالى سبابهم ولعناتهم لأنه لم يكن يسمح لهم بترك سيدهم وحده. وفى أثناء ذلك انضم إلى هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم عشرة آخرون من راكبى الجياد، وكرروا نفس مطلب الذهب، ملوحين بنفس التهديد وهو أخذنا للمثول أمام سيدهم إذا ما رفضنا الانصياع لهم، ومرة أخرى أجبت كما سبق إننى لا أحمل معى شيئا منه، لكننى قد أقدم لهم، بعضا منه إذ ما ذهبوا معى إلى بيتى. وأخيرا قال لى زعيمهم (لأن البندقى المسكين لم يكن يعرف كلمة واحدة عربية!): «اذهب أنت إلى بيتك واحضر لنا الذهب وسنحتفظ بصديقك معنا، فإذا لم تعد فى الحال قطعنا رقبته!» وعندما رأيت زميلى المسكين ترتعد فرائصه وهو يبكى، لم يدر فى بالى أبدا أن أتركه فى أيدى هؤلاء النمور بينما أهرب أنا بجلدى، ولذلك فقد قلت لهم إنه هو الذى يقدر أن يذهب ويحضر المال بينما أبقى أنا معهم. ولم يكد يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام حتى هجم عليه الخدم وجردوه مما تبقى له من ثياب حتى اضطر إلى الذهاب إلى المدينة عاريا. فى أثناء ذلك كانت الشمس قد

غابت وبدأ الغسق يقبل. ولما كان المماليك لا يجرؤون على البقاء بعيدا عن سيدهم حتى عودة صاحبى فقد ركب أحدهم جواده وسار إلى البلد وأخبره أنهم أمسكوا بأوروبى، وأنهم يستطيعون الحصول على شيء منه.. وسرعان ما عاد يحمل أمرا بأننى لابد أن أمثل أمام البك فساقونى بين جيادهم، وجرونى إلى المكان الذى كان يجلس فيه، ومن حوله بطانته، ولما اقتربت منه قدمت نفسى إليه بهذه الكلمات: «أنا فى حمايتك!» وعادة يردون على هذه العبارة (مالم يكن هناك نية الأذى) بقولهم: «مرحبا بك!» ولكن بدلا من الرد بأية كلمة، تفرسنى فى غضب، ثم قال: من أنت؟ فأجبت: رجل إنجليزى. سؤال: «ماذا كنت تفعل هنا فى الليل؟ لابد أنك لص نعم.... نعم أنت الشخص الذى ارتكبت كذا وكذا وكذا من الأفعال فى ذلك اليوم!» وردا على ذلك أجبت بأننى كنت على أهبة دخول البوابة قبل مغيب الشمس بنصف ساعة عندما قبض علىّ مماليكه وتحفظوا علىّ حتى الآن. وبالفعل كانت الدنيا ظلاما، ولكن لم يكن قد مر على مغيب الشمس ساعة وهو موعد إغلاق البوابات، وبدون أن ينبت ببنت شفة، أشار إلى أحد ضباطه وأمره أن يأخذنى إلى القلعة، وهو بناء يقع على مسافة ما خارج المدينة وهو المكان الذى كان عليه تقام أغلب بيوت البكوات. وهو سهل رملى شاسع يدربون فيه مماليكهم»(١).

وفى كل شهر، يقوم أحد البكوات بالتناوب بالإقامة هناك لكى يحرس المدينة من قبائل البدو التى تغير ليلا - وكان الدور قد وقع على عثمان بك - المشار إليه سابقا - لكى يقوم بهذا العمل، وما كاد

---

(١) عن أحياء القاهرة فى هذا العصر، انظر: المرجع السابق ص ١٧٩ - ١٩٤ (المترجم).

يصدر أمره لنقلى حتى أردت أن أقول له بعض الكلمات، غير أن جموع الخدم - الذين كانوا يجدون لذتهم فى إهانة أى أوروبى - منعونى من ذلك، بل إن أحدهم ركلنى فى جانبى، بينما ركلنى آخر فى جانبى الثانى، وبصق أحدهم فى وجهى، بينما قام آخر بوضع حبل مجدول من ليف النخيل حول رقبتى وهذا النوع (من الحبال) أكثر خشونة من تلك المجدولة من شعر ذيول الخيول، وصدرت الأوامر إلى شخص يرتدى أطمارا لكى يجرنى على طول الطريق بينما كان يقوم شخص آخر مسلح بالسيوف والمسدسات بحراستى من فوق فرسه. وفى أثناء سيرنا نحو المكان، مررنا بأرض قليلة الانحدار بها بستان كبير محاط من اليسار بسور من الطين. ولما كانت البساتين هناك تتكون فى معظم الأحوال من أشجار البرتقال والليمون وغيرها من أشجار الفاكهة مزروعة بطريقة غير منتظمة، بحيث لا تقدر الخيول على اجتيازها، فقد راودتنى نفسى أن أقطع الحبل الذى كان يربطنى وأهرب بالقفز على السور خاصة أننى كنت أعرف المكان جيدا، ولما بحثت عن السكين الخاص بى تبين لى أنه لم يعد موجوداً. وبعد ذلك بقليل أخبرنى الشخص الذى كان يجرنى أننى لو أعطيت الحارس نقودا فإنه سوف يدعنى أذهب. لقد كان لكلمة «فلوس» فعل الصدمة الكهربائية. وأقبل الحارس نحوى فوق صهوة جواده، وسألنى عما إذا كان قد تبقى لدى بعض النقود، فرددت عليه إننى سوف أعطيه ما معى لو تركنى أذهب، وتنفيذا لذلك أعطيته حافظة نقودى التى كان المماليك رفضوا أخذها، فنظر فيها ووضعها

فى جيبه دون أن ينطق بكلمة، واستمر يجرنى حتى وصلنا إلى المكان. وهناك وضعونى فى حجرة ما بين سطح الأرض وتحت الأرض، ولفوا حول رقبتى سلسلة من الحديد مثل سلسلة العربات، وأغلقوا عليها بقفل، ثم ربطوها حول عمود من الخشب. وبسبب المشى شعرت بالحرارة، وكنت شديد الظمأ، إلا أن الخادم الذى كان يأمل فى مكافئة كان يقدم لى الماء كلما طلبت ذلك ، ولما عرضت عليهم إعطائى قلما ومحبرة، أو أن يوصلوا لأصدقائى فى المدينة رسالة منى لأخبرهم بالوضع الذى أنا فيه، لكن لم يكن فى مقدورهم إسداء جميل لى يكون فيه خطر عليهم، ولما كنت أشعر بالبرد، ومجردا من ثيابى، فقد كنت أخشى ما أخشاه أن أصاب بنزلة برد من أى شىء آخر، وفى ظرف نصف ساعة وصل البك ومعه بطانته، وتتقدمه مشاعل للإضاءة، وترجل عن فرسه، وصعد سلما يؤدى إلى حجرة جلس فى أحد أركانها، بينما التف حوله أتباعه فى شكل حلقة. ولما تم ذلك أرسل فى طلبى، فحلوا قيودى وقادنى رجلان إلى الطابق الأعلى، وفى طريقى إلى الطابق الأعلى سمعت صليل الآله التى تستخدم للضرب على القدمين Bastinado (الفلكة) فعرفت ما ينتظرنى. ولما دخلت، وجدت سجادة فارسية نظيفة قد مدت أمامى، ولم يكن ذلك سوى شىء من قبيل المجاملة لعامة الناس الذين يكونون على وشك تلقى عقوبة الضرب «بالفلكة»، وسألنى البك عمن أكون. وأجبت: «رجل إنجليزى». سؤال: «ما هو عملك؟. جواب: «أتعيش على ما يبعثه الله لى (وهى عبارة عربية دارجة على كل لسان)، عندئذ قال:

اطرحوه أرضا، وعندما تساءلت عما فعلت؟ أجاب كيف تجرؤ أيها الكلب أن تسألنى عما فعلت؟ اطرحوه أرضا! عندئذ ألقونى على بطنى وهو الوضع المعتاد للضرب بالفلكة، فعندما ترتفع الساقان إلى أعلى يصبح الكعبان فى وضع أفقى. ثم بعد ذلك أحضرت عصا غليظة يبلغ طولها ستة أقدام تقريبا، ومثبت فى طرفيها سلسلة من الحديد، إذ يلفون هذه السلسلة حول القدمين أعلى الكاحلين ثم يلفونهما معا وعلى كل جانب يقوم شخصان مزودان بما يعرف بالكرباج برفع كعبى القدمين إلى أعلى بواسطة هذه العصا، ثم ينتظرون تلقى الأمر من مولاهم(١)، وبعد أن جعلونى فى هذا الوضع، جاء إلىّ ضابط وهمس فى أذنى: «وفر على نفسك الضرب.. أعطه ألف دولار وسوف يدعك تذهب!» وتداولت الأمر مع نفسى أننى لو عرضت شيئا الآن، ولربما أرسل معى واحدا من رجاله لتسلم ما عرضته، وسوف أضطر إلى فتح خزانتى المحصنة التى كنت لا أحتفظ فيها بأموالى فقط، بل بأموال كثيرة ائتمننى عليها آخرون وهى أموال تسلموها مقابل بضاعة باعوها لتجار آخرين. وربما حملوا كل هذه الأموال معهم فى نفس الوقت، ولما كنت لا أفكر فى زج الآخرين فى مصيبتى، فقلت: «مفيش» أى أنه لا يوجد معى نقود، وعلى أثرها أعطى أوامره على الفور لكى يبدأوا، وكان الضرب فى أول الأمر محتملا، ولكن ما إن استسلمت للضياع لأنى كنت أعلم جيدا أن حياتى رهنا لنهم وحش

(١) لاحظ دى - بوار - إيمية أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر وجود هذا النوع من العقوبة بين بدو الصحراء فى مصر انظر: وصف مصر - ترجمة زهير الشايب الجزء الثانى ص ٢٧٤ وما بعدها (القبائل العربية فى صحراوات مصر والمترجم).

فى صورة إنسان، ولما كنت قد سمعت ورأيت حالات كثيرة لمثل هذه القسوة، المتناهية فلم أكن أتوقع أن أعامل بطريقة أفضل مما عومل به الآخرون من قبلى، ولم يكن أمامى من خيار سوى أن أترك نفسى لرحمة الله، مسلما روحى له، واعترافا بفضله، أقر أننى لمست وقوفه إلى جانبى بشدة لا مثيل لها، إذ أذهب عنى كل الخوف من الموت حتى إنه لو عرض علىّ ساعتها أن أشترى حياتى مقابل نصف بنس لكنت - فى نظرى - قد ترددت فى قبول ذلك العرض، وبعد أن استمروا فى ضربى وقتا طويلا، اعتقد الضابط أننى ثبت إلى رشدى، فهمس فى أذنى مرة أخرى بكلمة: «الفلوس» غير أنه فى تلك المرة طلب مبلغا مضاعفا، وفى الحال أجبت: «مفيش» فحمل علىّ بشدة، إذ شعرت بكل ضربة كما لو كنت أكوى بسيخ ساخن لدرجة الاحمرار، وأخيرا ظن الضابط نفسه أننى لا أملك المال، ولكن قد يكون فى حوزتى بعض البضائع الفاخرة، فهمس فى أذنى بشىء من هذا القبيل. ولما كنت أعرف أن البنادق الانجليزية الأنيقة تسحر ألبابهم أكثر مما تفعل النقود. وتصادف أن كان عندى قربينة أنيقة (Blunderbuf) مزينة بفضة كثيرة وقيمتها تساوى عشرين جنيها (استرلينيا) فعرضتها عليه خاصة أنه كان فى استطاعتى أن أقدم له هذا السلاح دون أن أضطر لفتح خزانتى المحصنة، ولما لاحظ البك حديثى إلى الضابط سأله عما أقول له، فرفع الضابط إصبعه وأجاب متهكما «بير قربينة»، عندئذ رد البك قائلا: Ettrup il kelp أى: اضرب الكلب!! عندئذ حملوا علىّ بكل ما أوتوا من قوة، فى البدء كان الألم لا يطاق، إلى أن

بدأت أشعر بعد ذلك بأن قدميَّ يتنملان وكأنهم كانوا يضربون كيسا من الصوف: ولما وجد فى النهاية أننى لم أعرض عليه المال، بدأ يساوره الشك فى أننى رجل معدم، ولما كنت لم ارتكب شيئا أستحق عليه العقاب فقد نطق أخيرا قائلا Saibu أى «سيبوه» أو دعوه يذهب، وعلى أثر ذلك فكوا وثاق قدميَّ، وأجبرونى أن أمشى إلى سجنى، وأعيد وضع السلاسل حول رقبتى، ولما سألت الخدم عن لزوم تقييدى بالسلاسل وحالة قدميَّ لاتسمح لى بالهروب أجاب: «إن هذه هى إرادة البك». وأجبرت على الخضوع لأوامره، وبعد مضى ما يقرب من نصف ساعة، جاء مرسال ومعه آخرون يحمل أمرا بأن أحمل إلى الطابق الأعلى مرة أخرى، وقام الخدم بفك السلاسل وحملونى حتى صرت قرب الباب، ثم حثونى على السير وإلا أمر البك بضربى مرة أخرى. وفى أول الأمر كنت أظن أن ذلك يمكن أن يكون حقيقيا معتقدا أن أحدهم قد أشار عليه بأنه إذا ما استمر فى ضربى فسوف يحصل على المال منى. ولقد حدث ذلك أحيانا مع آخرين قبلى، إذ إن هناك حالات استمر استخدام الفلكة قائما لمدة ثلاثة أيام على التوالى حتى وصل عدد الضربات إلى ألفى ضربة، بعدها تصبح القدمان عامة عاجزتين للأبد. وقد يتحمل هذا الضرب ذوو البنية القوية، أما هؤلاء المحرومون من هذه المزية، فقبل أن يصل عدد الضربات إلى ستمائة ضربة يتدفق الدم من أفواههم وأنوفهم ويلفظون أنفاسهم، إما على الفور أو بعد التنفيذ بوقت قليل، وعندما وصلت إلى الباب أدركت أن هناك مهزلة مدبرة لإطلاق سراحى، إذ

التفت البك إلى أحد رجاله متسائلا: «هل هذا هو الرجل الذى حدثتنى عنه؟ ثم اقترب منى وتفرس وجهى كما لو كان يفحصه بدقة، ثم رفع يديه قائلا: ياالله.. إنه هو..! لماذا؟ إنه أفضل رجل فى القاهرة، وهو صديقى بوجه خاص!!» - (بالرغم من أننى لم أر وجهه من قبل) - ثم استطرد يقول: «أنا فى غاية الأسف أننى لم أكن موجوداً هنا وإلا لكنت أخبرتك بذلك وقيلت عبارات كثيرة من هذا القبيل على أثرها قال البك: «ها هو خذه إننى أسلمه لك. وإذا كان قد فقد أى شىء عليك أن تنظر فى أمر إعادته إليه فى الحال» ومرة أخرى أجبرت على المشى حتى غبت عن نظره، عندئذ قام خدم صاحبى الجديد بمساعدتى على النهوض، وحملونى مسافة طويلة إلى مقر إقامته حيث قدم لى شيئا لآكله، ويمكن للمرء أن يتصور كيف كانت الحالة التى كانت عليها شهيتى، ثم أعد لى سريرا معقولا كان مناسبا جدا لى، أذ أبعد عنى الإصابة بنزلة البرد بعد أن جردت من أغلب ثيابى، ولم أستعد منها شيئا سوى كوفية قديمة من كشمير، ولم أستطع أن أمنع نفسى من أن أسأله عما إذا كانت هذه هى الطريقة التى يستضيف بها أبناء وطنه أمثالى من الغرباء؟ فكان رده على Min Allah, Maktub, Mukader أى من الله ومكتوباً عنده فى كتاب المصير. ومقدراً لا يمكن تغييره. ولكنى جعلته يفهم أننى أشك أنه من الشيطان إلا أنه لم يسىء فهم صراحتى. ثم قام بدهان قدمىَّ بالزيت ولفهما بخرق من القماش، ومن ثم فقد قضيت ليلة بلا راحة، وفى الصباح سألنى عما إذا كنت أعرف مدير الجمارك فأجبت: «نعم إنه صديقى الحميم». فقال:

«حسنا سوف أحملك إليه» ثم وضعنى فوق جحش، بينما امتطى هو فرسا، وبمصاحبة واحد من زملائه الجنود قادونى نحو المدينة. وعندما اقتربنا من البوابة قال: خذوا عنه الأطمار إنه لمن العار أن يدخل المدينة وهو على هذه الهيئة المزرية، فقلت: أى عار؟ بالطبع ليس بالنسبة لى ولكن بالنسبة لمن فعل بى ذلك»! ومرة أخرى قال: «مقدر!» وعندما وصلنا إلى بيت مدير الجمارك علته الدهشة، وحاول أن يستشف كيف حدث هذا الأمر، غير أننى رجوته أن ينوب عنى فى إرضاء صديقى الجديد لأننى كنت أعلم جيدا أن الأمر كله ما هو إلا تمثيلية هزلية قصد بها الحصول على بعض المال لهذا الضابط، لأن البك لم يكن ليقبل منى إلا مبلغا يليق بمستواه. وقبل مدير الجمارك أن يتولى هذه المهمة راضيا، وعندما حسبت حسابى كله وجدت أن الأمر قد كلفنى ما يقرب من عشرين ليرة وهى قيمة الهدايا التى قدمت إلى الخدم وإلى منقذى المزعوم (Soi - Disant)، ثم بعد ذلك قادونى إلى بيتى حيث حملنى خادمه إلى الطابق الأعلى ووضعنى فى السرير حيث بقيت ملازما للفراش لمدة ستة أسابيع قبل أن أتمكن من السير بمساعدة عكازين. وظلت قدماى وكاحلاى متورمة طيلة ثلاث سنوات بشكل ملفت للنظر، خاصة أن كاحلىّ تعرضا لضرر شديد من جراء التواء السلاسل، لدرجة أنهما حتى الآن وبعد مرور عشرين عاما - لا تزالان قابلتين للتورم عند أى مجهود كبير(١).

---

(١) تمت عملية الضرب بالفلكة فى يوم ١٥ نوفمبر عام ١٧٧٩ طبقا لما ورد فى مذكراته ص ١١٦ من أصل الكتاب، ويقول - بعد عشرين عاما - أى انه كان يكتب مؤلفه عام ١٧٩٩، أى أثناء تواجد حملة نابليون فى مصر، وانتهى منه بعد فشل الحملة وخروجها من مصر إذ يشير فى اخر صفحة من الكتاب إلى ذلك، ومن ثم فأن هذا الكتاب قصد به تعريف الانجليز بمصر قبل قيامهم بحملة فريزر (المترجم).

ولقد سئلت فى بعض الأحيان عما إذا لم يكن فى الإمكان أن يلقى أمثال ذلك الوغد العقاب على أيدى العدالة؟ إن الذين يعرفون أى شىء عن البكوات والمماليك يدركون أن ذلك لا يمكن أن يحدث بتاتا، بل يصل الأمر إلى حد المخاطرة إذا حاول أحد القيام به. وفى ذلك الوقت كان إبراهيم بك، ومراد بك، أكثر البكوات نفوذا، فلو أننى قدمت شكواى إليهما ومع الشكوى بعثت بهدية يتراوح قيمتها ما بين عشرين ألف إلى خمسين ألف دولار (لأنه إذا قل المبلغ عن هذا الحد فلن يجد استجابة) لربما ذهبا إلى حد نفى عثمان بك من القاهرة، لكن من المحتمل أيضا أنهم قد يعيدونه فى غضون شهور خاصة لو وجدا أن الضرورة تقتضى أن يدعما جبهتهما ضد منافسيهما، بل إن رأسى يكون مهدداً لو لقينى هذا البك عرضا فى الطريق فيما بعد.

لقد كان إبراهيم بك ومراد بك يعرفان شيئا عنى، غير أنهم لما سمعا عن الحادثة كلها، ما كان منهما إلا أن قالا عن عثمان بك: «قبح الله وجهه!» وخلال اعتكافى زارنى كثير من أصدقائى الحقيقيين سواء من بين المماليك أو الأتراك، وكانوا يبدون تعاطفا كبيرا نحوى، غير أن عزاءهم الكبير لى كان دائما قولهم مقدر.. من اللـــــــه........

ولكى أبرهن على صدق ما رويته سوف أروى الحادث التالى الذى وقع بعد ذلك بقليل وهو يخص عثمان بك هذاوإبراهيم بك، فقد ألقى الأول باثنين من العرب[1] فى السجن بسبب ارتكابهما مخالفات بسيطة، فتظلمت زوجتاهما إلى إبراهيم بك نيابة عن زوجيهما اللذين

(١) مصطلح عربى كان يطلقه الرحالة الأوربيون على كل من البدو والمصريين على حد سواء (المترجم).

كانا من أتباعه، لكى يطلق سراحهما. فبعث برسول إلى عثمان بك بخصوص هذا الموضوع على آمل أن يسدى إليه جميلا ويطلق سراح هذين العربيين لأنهما «من رجاله»، وهو تعبير دارج يعنى أن الشخص يحظى بالحماية. وقام عثمان بك بصرف الرسول بعد أن أخبره أن الرجلين سوف يتبعانه فى الحال. وكان البكوات فى ذلك الوقت كل فى بيته فى السهل الرملى الذى سبق الإشارة إليه. وبعد أن انصرف الرسول أرسل عثمان بك فى طلب الرجلين من السجن (ولما مثلا) قام بنفسه بقطع رقابهما بيديه، ثم أمر خدمه بأن يقوموا بربطهما من أرجلهما بالحبال وجرهما إلى بيت إبراهيم بك. ولما علم هذا الأخير - وكان قد بدأ فى تناول قهوته - بما حدث ألقى بفنجانه على الأرض، وأمر جميع مماليكه أن يتسلحوا ويمتطوا جيادهم ليحاربوا عثمان بك، وفى لحظات تعالى صليل السلاح وصيحات الحرب، وتوقع كل إنسان وقوع معركة حامية الوطيس، غير أن زوجتى البكوات تدخلتا للحيلولة دون وقوع المعركة وتحت طلبهما تم الصلح، وأسقط ذكر الموضوع كله.

ولكن بالرغم من وجود أمثال هؤلاء الأوغاد بين البكوات والمماليك، يستطيع المرء أن يقول باطمئنان إن الغالبية العظمى ينطبق عليهم ذلك الوصف، غير أننى خلال إقامتى الطويلة بينهم وجدت أشخاصا عديدين سواء من المماليك أو الأتراك ذوى مبادئ غاية فى الأمانة، وذوى طبيعة أريحية، إذ لم يكونوا فقط ذوى شخصية محببة، بل كانوا أيضا متمسكين بعقيدتهم فيما يتعلق بالحلال والحرام. ولقد أصبح

بعضهم من أعز وأخلص أصدقائى، غير أننى فى نفس الوقت لاحظت أن بعضا ممن كانوا يلقوننى بوجه منشرح ينم عن الصداقة كانوا يضمرون بعض الخطط لغشى أو الحصول على فائدة منى(*) وعلى الجانب الآخر، فإن هولاء الذين قد يبدون عند أول لقاء متجهمين ومرتابين منى، ثم يكتشفون أننى لست الوغد المتوقع كما علمهم التعصب يصبحون فى أغلب الأحيان أعز أصدقائى، بل إننى كنت على ثقة من أن أئتمن بعضهم على أى شىء ذى قيمة دون أن ينتابنى أدنى خوف من استيلائهم عليه.

وعلى العموم فإن المعاملة المجحفة التى لقيتها على يد بعض منهم لا تعمينى لدرجة إدانة الكل بلا تفرقة، إذ إننى مقتنع تماما أن كثيرا منهم خيرين بطبيعتهم، وأنشئوا على تربية حسنة مالم يظهرهم الاعتقاد فى الخزعبلات عند بعضهم، والتعصب الذى ينبع أساسا من ذلك الاعتقاد عند البعض الآخر بمظهر التحيز المتباين.

إنه لمن المحال أن نرسم الملامح العامة لشخصية الأتراك، لأننا ما نضعه نحن الأوروبيين تحت مصنف الطوائف Denominations يعنى خليطاً من أمم كثيرة ومتباينة، فهناك فرق بين البوسنى، والألبانى، والدالماشى، والروميلى، والكانديون Candiot والأناضولى، والتترى، والكردى، وكذلك بين التقسيمات الأخرى وما

(*) أذكر حالة منفردة تبين لى أننى كنت فيها مخطئا عندما عرفنى رجل بنفسه لأول مرة بطريقة اعتقدت أنها ملامح صداقة مبالغ فيها (المؤلف).

يتفرع منها. وبعض هذه القوميات يميل بطبعه للشر لأنه نزق سريع الغضب، والبعض الآخر الذى فى استطاعتى أن أقول إنهم كانوا يشكلون أغلب الذين صادفتهم عن قرب كانوا غير متسرعين ولايستثارون بسرعة، وحتى لو حدث ذلك فانه من السهل تهدئتهم وتطييب خاطرهم بالكلمات المعسولة وبطرق مهذبة، وهم يبستمون لأى أوروبى إذا ما رأوه وقد ثارت ثائرته لأتفه سبب. وديانتهم تجعلهم ينظرون إلينا على أننا أدنى منهم بدرجات كبيرة، ولما كان الأوروبيون القليلون الذين يعيشون بين ظهرانيهم لا يضربون لهم الأمثال التى توحى إليهم بأفكار طيبة عن المسيحية، فإن الاعتقاد فى الخزعبلات، مضافاً إليها انعدام التعليم والمعرفة الجيدة، جعل أغلبهم يؤمنون أنه لا ضرر - بل ذهب البعض إلى حد الاعتقاد أن ذلك من باب الفضيلة أن يعامل الجائر Gaur أو الكافر - أى غير المؤمن - معاملة سيئة، بالرغم من أن القرآن يحرم ذلك. وهم فى ذلك لا يختلفون كثيرا عن بعض طوائف المسيحيين الذى كانوا فى الماضى - ولا يزالون بشكل أشد فى الوقت الحاضر - يعاملون الذين لا يشاركونهم عقيدتهم بطريقة ليست أفضل. بل أسوأ من تلك التى يعاملنا بها الأتراك، ولو درسنا هذه القضية بأمانة فسوف يتضح لنا أنه فى كل الحالات قلما يختلف المضطهدون عن الذين وقع عليهم الاضطهاد بسبب اختلاف عقائدهم. فلا أحد يغيب عن باله المدى الذى ذهبت إليه أمثال هذه الاضطهادات بالرغم من وجود الوصايا التى وردت فى التوراة، بأن لا نحب بعضنا بعضا فحسب، بل أن نتحمل صغائر أصدقائنا، بل حتى

نحب ونعاون أعداءنا. وبالرغم من أننى وجدت مفكرين متحررين بين الأهالى المسلمين وكذلك بين المسيحيين المتخفيين بين المماليك الذين وضعوا على وجوههم ظاهريا قناع الإسلام من باب الضرورة، بينما بقوا سرا متمسكين بعقيدتهم السابقة خاصة إذا كانوا مولودين من أبوين مسيحيين(١)، وإذا ما أخذناهما معا، فإن هاتين الصفتين نادرتا الوجود بالمقارنة بأولئك الذين يعيشون فى بلادنا ولا يؤمنون إلا بالقليل أو لا يؤمنون على الإطلاق بما لديهم (من عقيدة)، فالغالبية العظمى من السكان مسلمون متمسكون بعقيدتهم بحق. وهؤلاء يلقنون منذ نعومة أظفارهم أن يحتقروا أولئك الذين يعتبرونهم كفارا أو غير مؤمنين، وبما أن التعليم الذى يتلقونه لا يناسب تثقيف أفكارهم، فليس لدينا سبب أن نتعجب لرؤية كل أنواع النذالة وهى تمارس بينهم دون تحكم فيها. إن الفرق بيننا وبينهم - فى هذا الخصوص - ليس فى الحقيقة شاسعا فى جوهره، بل فى مظهره فقط. فلو سقطت فجأة المسوخ والأقنعة التى علمنا التعليم أن نخفى تحتها ميولنا الغريزية، فإننى أخشى أن كل الذين يعيشون فى بلادنا، ولم يتوصلوا بعد إلى وسائل تمكنهم من التحكم فى غرائزهم الفطرية الميالة للشرور بدلا من ترك العنان لخيالاتهم وتبريراتهم - سوف يظهرون فى حالة تدعو للرثاء، بل فى صورة سيئة - إن لم تكن أسوأ من الصورة التى يظهر

---

(١) لاحظ رفاعة الطهطاوى وجود عدد كبير من المماليك الذين خرجوا مع الفرنسيين وأقاموا فى فرنسا بعد أن تنصروا انظر: رفاعة الطهطاوى: تخليص الأبريز فى وصف باريز طبعة الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣ ص١٢٠ - ١٢٢ (المترجم).

بها الأتراك، غير أننى أشعر بالامتنان للوازع المانع الذى أوجده التعليم والالتزام بالقانون على مسلك الرجال من بنى جلدتنا، وهى بلا شك مزايا بالنسبة للمستوى القومى، لكنها بالنسبة للفرد ليست بذات منفعة على الإطلاق. دعونا إذن لا ندين الأتراك، بل نشفق عليهم، فكافة حكوماتهم وطباعهم وقوانينهم وعلى الأخص الطريقة التى تنفذ بها كلها فاسدة إلى أقصى درجة(*). غير أنه وسط هذه الخصائص تبقى الفرصة للإصلاح، وكم أتمنى بشدة أن تسقط النظم التى لديهم الآن فلربما حل محلها ما هو أفضل منها، لكننى أخشى ما أخشاه أن هذا الأمل غير محتمل الحدوث، ما لم نعط الفرصة لبعض مدعى الإصلاح الذين ظهروا أخيرا لكى يقيموا طرازا جديدا لنظام الحكم.

هناك طريقتان لتنفيذ عقوبة الضرب بالفلكة على المماليك فى مصر سأحاول وصفهما، وكلتاهما تثير العواطف الرقيقة غير أن السيدات لسن فى حاجة إلى الخوف الشديد من سماع هذه الحكاية لأنهن بحكم أنهن من الجنس اللطيف - معفيات تماما من هذه العقوبة تماما مثل نساء الأتراك والمماليك. هناك علقة تعطى فوق كعبى القدمين بالكرباج، وقد سبق لى وصف هذه الأداة عندما كنت أتحدث عن فيضان النيل، ويقوم بتنفيذها رجلان يحمل كل منهما العصا ذات السلاسل التى عن طريقها ترفع القدمان إلى أعلى حتى تصبحان فى

(*) من واقع تجربتى استطيع بسهولة ان اعطى امثلة لعدد من القضايا التى تثبت أن السبب الاكبر لا يكمن فى القوانين ذاتها ولكن فى الطريقة التى تنفذ بها هذه القوانين. وفى ذلك يظهر الفرق الشاسع بين حكوماتهم والحكومات التى فى بلادنا (المؤلف).

وضع أفقى، ثم يتبادلان الضرب مثل دقاقى الحنطة عندما يأمرهم مولاهم بذلك، وهذه العملية تعرف بتلقى العلقة - وفى الغالب - أكل العلقة.

أما الطريقة الثانية فهى عبارة عن ضرب الإنسان على ظهره خاصة فوق الجزء الضيق منه (أى الوسط) إلا إذا كان الضرب مشفوعا بالرأفة، عندئذ يهبط موضع الضرب إلى الجزء الأسفل (الردفين)، ويتم الضرب بنبوت يبلغ طوله حوالى ستة أقدام، وسمكه ما بين البوصة وثلاث أرباح البوصة، ويلقى بالشخص على بطنه بينما يقوم الخدم بالإمساك بيديه ورجليه، ولما كان الذين يكلفون بهذا الأمر يستخدمون كل ما أوتوا من قوة، فلم يكن فى استطاعة المرء أن يتحمل أكثر من ثلاثين إلى أربعين ضربة، وما أكثر ما ألحق الضرب الأذى بالعمود الفقرى، وقلما زاد عدد الضربات على هذا الحد إلا إذا كانت هناك نية أن يفضى الضرب إلى الموت وهذا يحدث بقصد أحيانا، وتسمى هذه العملية عملية أخذ النبوت وبالمصطلح العامى «أكل النبوت»، والنبوت نوع من الهروات، ومهما بلغت من الألم، إلا أنها كانت عقوبة ذوى المكانة الخاصة، لأن الشخص صاحب المكانة العالية يسوؤه أن يهان لو ضرب بالكرباج، وقلما نجا ضابط أو كاشف أو حاكم إقليم - بل فى بعض الأحيان، بعض البكوات - من علقة النبوت. ولا يعتبر الواحد منهم أن كرامته قد أهينت لو تلقاها، إذ لا يترك النبوت ولا الكرباج أى بصمات على نفسية الشخص، حتى

إنهم فى بعض الأحيان يتندرون، ويتباهون فى أحاديثهم الخاصة بأنهم أخذوها. ففى أثناء إقامتى فى القاهرة أخذها نائب رئيس الشرطة وهو رجل ذو حيثية كبيرة وذلك بناء على أوامر صدرت من على بك شخصيا لأنه قام بسب تاجر من البندقية كان هذا الأخير يجله ويقدره، وبعد ذلك بوقت قصير أمر مراد بك أن توقع على أحد رجاله الذى كان يشغل منصب الكاشف، ولم تمر ستة أسابيع على ذلك حتى رقاه إلى مرتبة البك بناء على تزكية الأول (مراد بك). ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا البك الجديد يميز عن غيره ممن يحملون اسم عثمان والذى ينطقونه عادة «أوسفان» بإعطائه كنية عثمان بك Abu Nabute أى أبو نبوت، بل إنه كان فى أغلب الأحيان يوقع إمضاءه بنفسه بهذا الاسم. وبالرغم من أن الضرب بالنبوت كان عقوبة ذوى القدر الرفيع، فقد كان يحدث أحيانا أن ينال الفلاح أو غيره من الرعاع - شرف أن يضرب به، غير أن ذلك كان يحدث فى حالات نادرة الحدوث عندما لا يتوفر وجود الكرباج، ولقد تصادف وجودى ذات مرة أثناء وقوع حالة مشابهة مما يمكن أن تفسر كمثال للطريقة التى كان المماليك يعاملون بها رعاع الناس الذين كانوا فى نظرهم كالكلاب الكثيرة لا أكثر ولا أقل. وسوف أروى هذه الحكاية: كان يعقد فى أيام الآحاد سوق يباع فيها عادة الزبد وبعض المنتجات الزراعية فى قرية تقع على الجانب الآخر (الغربى) للنهر المقابل لبولاق - ميناء القاهرة - وتسمى إمبابة. وفى ذلك اليوم يتجمع حشد من الناس ليركبوا القوارب لتنقلهم إلى القرية والعودة منها مرة

أخرى، وفى ذلك فرصة مغرية لأصحاب القوارب للمجىء إلى هذا المكان من مسافات بعيدة أملا فى أن يتربحوا بعض البارات (عملة من الفضة الرديئة قيمتها ثلاث فارثنج)(١).

وحدث أن أحد المماليك كان يريد أن يذهب إلى قرية تخصه أى إلى بيت يخصه فيها، وهذه القرية كانت تقع على مسافة بعيدة شمال النهر، ولهذا جاء إلى الشاطئ حيث تقف القوارب، وهناك لمح أحد المراكبية واقفا فى ذلك المكان، فأمره أن يحمله على الفور إلى الجهة التى يبغيها. ولما أدرك المسكين أنه لو فعل ذلك لضاع عليه ما كان يتوقعه من مكسب فى ذلك اليوم، ولهذا حاول أن يقدم الأعذار ليتهرب من تنفيذ الأمر، عندئذ أمر المملوك رجاله أن يسحبوه ويضربوه وتم تنفيذ الأمر فى الحال على مرآى ومشهد من بصرى، وضرب بالنبوت الذى سبق الحديث عنه، وبعد أن نال عدداً من الضربات المقررة، لم يعد قادرا على الإمساك بدفة المركب، رغم ذلك لم يتركوه فى حالة، بل قيدوه بالحبال بحيث كانت ركبتاه عند صدره، وكذلك كانت قدماه تتدليان عند هذا الوضع، ثم دحرجوه فى قاربه ووضعوه بالقرب من مؤخرة مركبه التى انطلقت تسبح شمالا مع تيار النهر، ولا أدرى ماذا جرى للمسكين لكنه لم ينته إلى مكان! لقد ارتعدت فرائصى وثرت

(١) الفارثنج هى أصغر عملة انجليزية قيمتها ربع البنس، وكل ١٢ بنس تساوى شلنا انجليزيا، وكل عشرين شلن يساوى جنيها استرلينيا أى أن قيمة البارة الواحدة فى ذلك الوقت كانت تساوى جزءا من تسعمايه وستين من الجنيه الاسترلينى أى ما يعادل أقل من مليم مصرى، أو ما يعادل خمسة مليمات بالقيمة الشرائية فى وقتنا الحاضر (المترجم).

لهذا الظلم البين والقسوة البربرية، ولم يدر ببالى أن يكون هناك أناس وصل الإذلال بهم إلى هذا الحد ويتحملون مثل هذه الإهانات كل يوم، ورغم ذلك يعتبرون أنفسهم أسعد شعوب العالم! وبالذات من الأوروبيين، لأننى كثيرا ما سمعتهم يقولون لبعضهم بعضاً عندما يتشاجرون: «هل نحن فى مالطة؟ حتى نعامل بمثل هذه الطريقة، إن الإسلام يعلمهم أن كل شىء بيد الله، وهو مقدر، وليس فى مقدرة أحد أن يغير ما هو مقدر ومكتوب. ومما يبدو لى من أحوالهم فى الوقت الحاضر أن أمامهم زمناً طويلاً قبل أن تتغلغل فيهم مبادئ مغايرة ما لم يظهر من بينهم رجل مدعم بالسلطات اللازمة والنفوذ، ويتمتع بعبقرية وإدراك راق مثلما برز بطرس الأكبر من بين وسط الروس ليقوم بإحداث حركة إصلاح شاملة(١)، فعليه أن يتصارع مع مزيد من المصاعب الناتجة عن الخلاف بين دين محمد وبين المؤسسة اليونانية (يقصد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية)، أما البديل الآخر هو أن تقوم أمة أكثر رقيا بإخضاعهم، فعلى الأقل قد يجعل

---

(١) يذكرنا ذلك بما كتبه كلوت بك: «ولا يأخذن أحد المصريين بجريرة هذه النزعات، فإن الروسيين لم يشدوا أزر بطرس الاكبر فيما تصدى لاجرائه من جلائل الأعمال وإدخاله على شئونهم من نافع الاصلاحات، وتلك سنة معروفة عن الامم فى ادوار انتكاسها، فكلما ظهر من بينها مصلح يريد الاخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية فى الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على احباط مساعيه والفت فى طريقها العقبات والمصاعب «عن لويس عوض تاريخ الفكر المصرى الحديث مدبولى ط ٤ ١٩٨٧ ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

ذلك الأجيال الصاعدة تحتذى بها، وتتخذ منها مثلا أعلى ومن ثم فقد يساعد ذلك على غرس الأفكار الجديدة فى نفوسهم(*).

(*) كان أمام الفرنسيين ـ عندما غزوا مصر فرصة ليكونوا أحد العوامل المؤدية إلى افكار أفضل فى نفوس الناس لولا أنهم بدأوا مهمتهم بأرتكاب أفعال أكثر بشاعة فى الاسكندرية، فعندما دخلوا المدينة قاموا بأغتيال سكانها المساكين ومهما روجوا أو طبعوا فى بياناتهم واعلاناتهم بعد ذلك من أفكار فلم تغرى الأتراك أو العرب على تصديق ادعائهم الأخلاص لهم بعد أن غرسوا في نفوسهم الشك ازاءهم، كما أنهم ليسوا أغبياء حتى تخدعهم الالاعيب المفبركة. فقد قالوا لنا الكثير عن استيلائهم على قلعة الاسكندرية فى هجوم عاصف، وكيف فتحت لهم رشيد بواباتها وكذلك عن القلاع الأخرى فى الصحارى مثل العريش والصالحية.. الخ. لكن من المعروف أن كل قلاع الاسكندرية ليست سوى أجزاء من بقايا أسوار الأسكندرية القديمة المحطمة الواقعة على ناحية البر وحالتها أسوأ من الحالة التي عليها أى سور حديقة فى انجلترا، أما رشيد فهى تقع فى مكان مكشوف ليس بها ظل بوابة. أما قلاع العريش والصالحية فهى ليست سوى محطات لأستراحة القوافل أى أنها عبارة عن مربع حوائطه سيئة اما من الحجر أو الطين فى حالة أدنى بكثير من أى سور حديقة عندنا. والقاهرة لها سور ولكنه أيضا فى حالة سيئة، بل اتخذته بعض المنازل هنا وهناك كحظيرة لها، أما قلعة أبى قير فهى بناء مربع اشبه بالمنزل، ولا يوجد مكان واحد محصن فى أى موقع فيها. أو فى مكان آخر غير تلك التى بناها الفرنسيون بعد ذلك، أما قلعة القاهرة فهى أشبه بالحصن، وفيها نصبت عدد من المدافع بطريقة سيئة، غير أن تلا يفوقها فى العلو ويقع إلى القرب من خلفها (يقصد جبل المقطم) يتحكم فيها تماما. (المؤلف).

الفصل السابع

ملاحظات على موقع مصر
بالنسبة لمزاياها التجارية

ليس فى نيتى أن أكرر ماذا كانت عليه تجارة مصر فى الأزمنة الماضية لأن ذلك موضوع معروف وكتبت فيه أعداد كثيرة من المجلدات، إنما سوف أكتفى بطرح بعض الأفكار عما يمكن أن تكون عليه فى الحاضر لو كانت فى أيدى آمة قوية ومتحضرة.

إن نظرة سريعة على الخريطة، يتضح لنا من أول وهلة أن الموقع الذى تشغله مدينة القاهرة يؤهلها لأن تكون مركز التجارة بين أكثر شعوب الدنيا كثافة بالسكان، فطريق البحر الأحمر يؤهلها أن تكون أقصر الطرق للاتصال بالهند وبلاد العرب والحبشة، وطريق البحر المتوسط يؤهلها أن تكون بالمثل بالنسبة لجنوب أوروبا وبعض أجزاء إيطاليا، وعن طريق مضيق جبل طارق تتصل بما تبقى من العالم، بل حتى بأمريكا، وعن طريق البحر الأسود تتصل ببقية الممتلكات التركية وبالروسيا، ويمكن أن تمتد من هناك عن طريق الملاحة فى الأنهار التى تصب فى البحر الأسود لتصل إلى قلب الروسيا وألمانيا وبولندا.

ولقد ثار شك حول سلامة الملاحة فى البحر الأحمر، وبالرغم من ذلك أستطيع أن أعلن من مصدر وثيق أنه آمن، فبينما كنت فى القاهرة خلال السنوات ١٧٧٦ - ١٧٧٧ تصادف أن جاء فى ذلك الوقت إلى السويس عدد من السفن الانجليزية، بعضها خطوط بحرية تجارية والبعض الآخر تحمل رسائل للحكومة أو لشركة الهند الشرقية، وقد اهتم بعض قباطنتها باستكشاف الجزء الصالح

للملاحة فيه. وجميعهم أكدوا لى وجود مياه عميقة كافية ومجال بحرى عميق على طول امتداده بالرغم من احتمال وجود مناطق ضحلة بالقرب من سواحله وبين جزره حيث تبحر عادة السفن المحلية، أما فى الوسط فهو صالح للملاحة تماماً مثل أى مكان آخر، ولقد أرانى بعضهم خرائط عليها علامات وضعوها فى ضوء ملاحظاتهم. أما عن مواقيت ذهاب وإياب السفن من الهند فهو - على أية حال - يضبط طبقا لهبوب رياح المونسون (الرياح الموسمية). فعندما يبدأ الموسم - كما قلت من قبل - الذى تصبح فيه الرياح الجنوبية غالبة الهبوب بشكل دائم، على مصر يكون الميقات للقدوم إلى السويس (من الهند)، أما عندما يبدأ هبوب الرياح الشمالية عندئذ يبدأ ميقات الرحيل إلى الهند. وإنى لأتذكر أن إحدى السفن الحربية التى كان قبطانها الكابتن كونور Connor التى كانت فى السويس تنتظر وصول رسائل من إنجلترا ولما تلقاها أبحر على الفور من المرفأ السابق قاصدا البنغال فوصلها بعد واحد وعشرين يوما، أما الطريق إلى بومباى فيمكن أن يستغرق وقتا أقصر، وربما ستة عشر يوما تكون كافية، وبالمثل فإنى أتذكر أن جماعة من السادة قاموا برحلة من لندن إلى مدراس عن طريق القاهرة والسويس واستغرقت شهرين وعشرة أيام، وعن طريق مثل هذه المحاولات المتكررة أصبح من الواضح أن هذا الطريق هو الأقصر والأسرع إلى الهند، وأن وجود خط بريدى ينتظم هناك على الأقل لحمل الرسائل قد يكون فى الغالب ذا أهمية قصوى. وكم من الوقت ياترى يجب أن يمر قبل أن نقيم خطا ملاحيا آمنا لخدمة التجارة.

أما عن وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط فإن الوسيلة العملية الوحيدة لتنفيذ ذلك هى شق قناة مباشرة بين البحرين، أو عن طريق شق قناة بين البحر الأحمر والنيل كما كان قديما، لكن بالنسبة للاقتراح الأول فإن هناك عقبة وحيدة تتمثل على وجه التحديد فى عدم وجود ميناء أو ملجأ للسفن على طول سواحل هذا البحر إذا ما حدث وشقت القناة التى تربطه بالبحر المتوسط. كما لا يوجد مصدر للماء العذب فى أى مكان بالقرب منها، أما بالنسبة للاقتراح الثانى فلا أرى أية معضلة بشأنه سوى المجهود والنفقات. غير أن هناك مشروعات أضخم منها تم تنفيذها فى بريطانيا فى هذا المجال. ولقد افترض بعض المؤلفين - وردد البعض الآخر زعمهم من بعدهم - أن هناك خطورة أن يفسد ماء النيل إذا ما شقت قناة بين البحر الأحمر والنيل، لأنهم كانوا يتصورون - أو يعتقدون - أن مستوى البحر الأحمر أعلى (من النيل)، بل إن أحد الرحالة المحدثين الذى التقيته فى القاهرة ذكر فى كتيب حول هذا الموضوع، بل افترض أن ذلك هو الحل - لو حفرت قناة من القصير (Cossier) إلى كرما Kerma (يقصد قنا) فى صعيد مصر. ودون حاجة إلى سماع الحجج المقنعة إلا أنه ليس فى استطاعتى أن أثق بمثل هذا الاقتراح، لأننى كما أتصور - أرى أن قوانين الجاذبية فى كل الكرة الأرضية واحدة، وبناء على ذلك فإن مثل هذه البحار التى تتصل ببعضها البعض مثل المحيط الغربى (يقصد الأطلنطى) والمحيط الهندى، والبحر المتوسط والبحر الأحمر، وبحر البلطيق.... الخ كلها بطبيعها تتخذ نفس

المستوى، غير أنه يوجد حالة واحدة قد يرتفع فيها مستوى البحر الأحمر فى بعض الأوقات إلى بضعة أقدام عن مستوى البحر المتوسط، وجدير بالذكر فى هذا الصدد لا يوجد مد وجزر بشكل ملحوظ على الساحل المصرى من هذا البحر الأخير، بالرغم من وجود مد بسيط عند قرن الساق (يقصد كعب الحذاء الإيطالى)، إلا أنه فى البحر الأول لا يزيد المد عندما يبلغ أقصى مداه على بضعة أقدام لا أذكر على وجه اليقين كم عددها. ولو فحصنا قاع قناة القاهرة التى تبدأ من السويس لتلتقى فى مجراها الطبيعى بالنهر، فأغلب الظن سوف نجده أعلى من مستوى البحر (المتوسط) حتى تتمكن من التدفق فى طريقها إليه عبر مسافة تقارب المائة ميل وبسرعة كبيرة. ولا أظن ـ بطريقة أو بأخرى أن الفرق يمكن أن يكون كبيرا. ولنفس السبب يقل اعتقادى أكثر فى أن مستوى البحر الأحمر أعلى عند قرما (Kerma ويقصد قنا) والقصير اللتين تبعدان أكثر من ثلاثمائة ميل جنوبا.

والذى لا شك فيه أن الوضع سيكون أفضل لو كان هناك قناتان، واحدة بين السويس والقاهرة والثانية بين القصير وقرما (قنا)، ففى ضوء المعلومات التى تمكنت من جمعها من القبطان الإنجليزى الذى جاب هذا البحر، ففى استطاعة السفن أن تأتى بسهولة حتى القصير، غير أنه فى أغلب الأحيان تضطر للبقاء لمدة أسابيع تكافح للوصول من هناك إلى السويس شمالا، وإذا جاءت متأخرة قليلا فى هذا

الموسم فإنه لن يكون فى استطاعتها الوصول إلى ذلك المكان (السويس) بتاتا. إننى لست على دراية بهذا الجزء من البلاد حيث يجب على القناة الأخيرة أن تمر فيه، وقد يكون هناك تلال يجب اختراقها، غير أن ذلك لن يكون عائقا يصعب التغلب عليه لأن هذا الأمر نفذ مرارا فى إنجلترا، أما قناة الصعيد (قنا ة القصير - قنا) فقد تكون مناسبة بدرجة أكبر للبضائع القادمة من الهند خاصة أنه لا توجد أية عقبات فى الملاحة فى النهر شمالا حتى عند أسوان، بل على العكس إذ يصبح فى الإمكان شحن البضائع القادمة من البحر المتوسط بسهولة أكبر عند السويس دون أن تضطر (السفن) إلى الإبحار عكس التيار جنوبا فى النيل. كما أنه من النادر وجود صعوبات أمام الملاحة من السويس جنوبا فى البحر (الأحمر).

ياليت هذا البلد يسقط فى أيدى أمة متحضرة، قادرة على توطيد نفسها هناك، فتعمل على تطوير مزايا موقعه لصالح التجارة. وما ذكرته آنفا لن يكون هو التطوير الممكن الوحيد، بل قد يصبح فى إمكان المناطق القريبة من إفريقيا مثل النوبيين والأحباش وما يقع إلى الغرب منهم أن يدركوا بدرجات متفاوتة مدى المزايا التى قد تعود عليهم من الارتباط التجارى مع هذا الشعب مادامت تقدم لهم الضمانات اللازمة لحماية أى مكاسب قد يحققونها إذا ما تم ذلك. صحيح قد يلزم مرور بعض الوقت لمحو الضغائن القديمة، لكن لا يوجد شىء يقدر على إقناعهم بسرعة بمزايا التعامل كأصدقاء من تكرار التأكيد على تطبيق العدالة الصارمة بينهم فيما يخص مصالحهم التجارية.

وهكذا تزدهر التجارة، وتنتشر الحضارة. عندئذ قد تصبح إفريقيا - التى لا نعرف عنها حتى الآن سوى النذر اليسير - خاصة فيما يتعلق - بأجزائها الداخلية - مصدرا لكم هائل من الثراء.

- انتهى نص المؤلف -

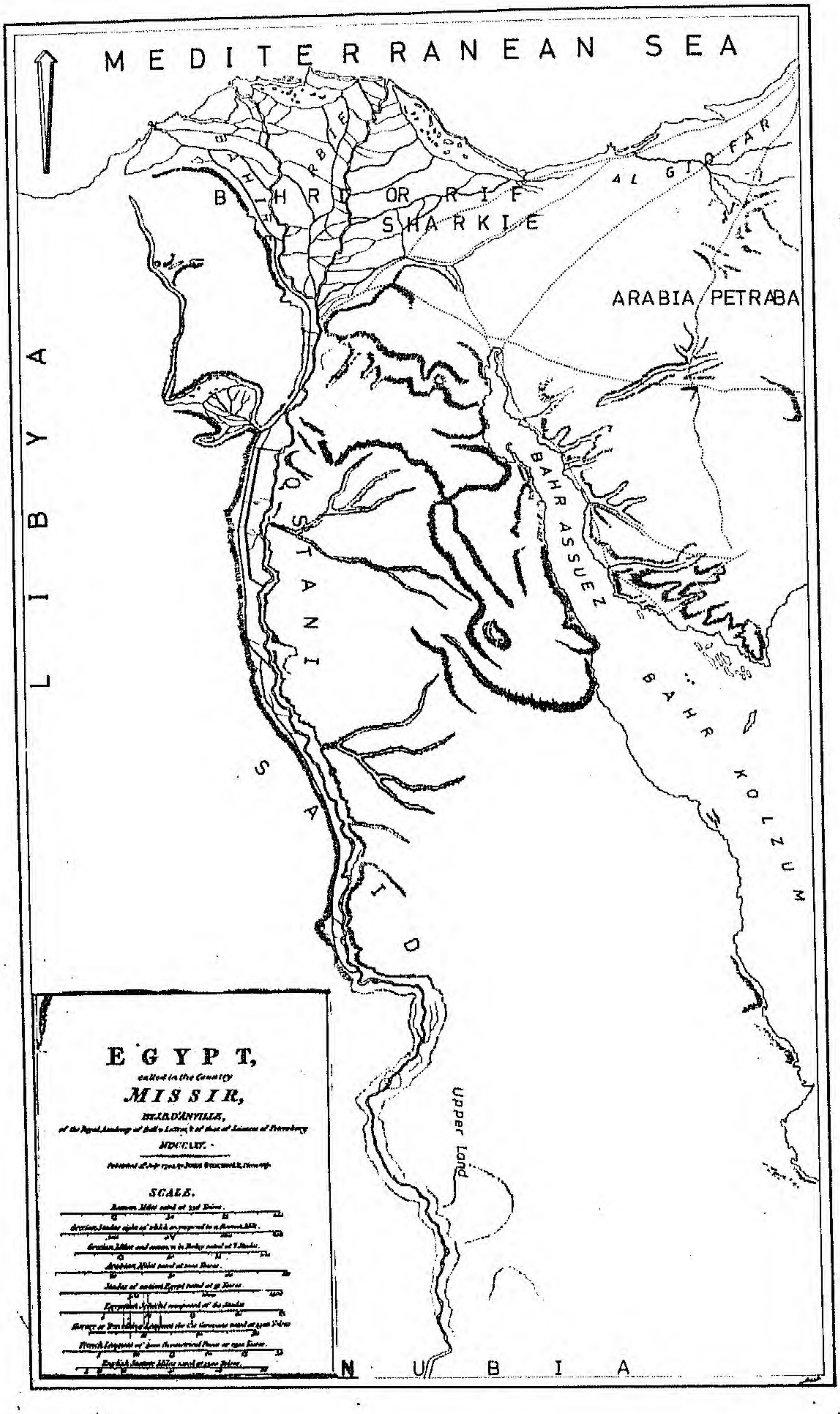
MEDITERRANEAN SEA
BAHIRI OR RIF SHARKIE
AL GIOFAR
ARABIA PETRABA
LIBYA
BAHR ASSUEZ
BAHR KOLZUM
SAID
Upper Land
NUBIA
EGYPT,
called in the Country
MISSIR,
SCALE.

المحتـــوى

مقدمة بقلم أ. د. سيد أحمد على الناصـــرى ٧

الفصل الأول: ثلاث رسائل مفتوحة إلى أولى الأمر ٢٧

الفصل الثانى: ملاحظات على وباء الطاعون فى مصر ٥٧

الفصل الثالث: ملاحظات على فيضان النيل ونوعية مياهه ٨١

الفصل الرابع: ملاحظات على المناخ وفصول السنة فى مصر.. ١١٧

الفصل الخامس: بعض التأملات حول صعود البخار

وتحوله سحب وأمطار ١٣٩

الفصل السادس: نموذج من عدالة الأتراك

أو بالأحرى عدالة المماليك فى مصر.......... ١٤٩

الفصل السابع: ملاحظات على موقع مصر بالنسبة

لمزاياها التجارية ١٧٣

رقم الايداع بدار الكتب
٨٩٥١ / ٩٧

الترقيم الدولى I.S.B.N
977 — 235 — 864 — 6

مطابع الأهرام بكورنيش النيل

منذ مائة وسبعة وعشرين عاما، وفى الوقت الذى كان فيه نابليون بونابرت طفلا رضيعا لا يتجاوز عمره خمسة شهور، وبالمثل كان محمد على باشا، وصل جون أنتيس إلى مصر فى السابع عشر من شهر يناير ١٧٧٠ بقصد التبشير بالمذهب البروتستانتى بين أقباط مصر وبالفعل اتجه إلى البهنسا فى المنيا حيث أكبر تجمع للأقباط، ثم عاد إلى القاهرة وكرس وقته للكتابة عن مصر والمصريين كمذكرات شخصية كتبها أول الأمر بالألمانية، ثم غادر مصر فى ٢٦ يناير ١٧٨٢ إلى إنجلترا لأنه حصل على الجنسية الإنجليزية وبقى فيها حتى بلغ الستين من عمره وفى ذلك الوقت كان نابليون قد قاد حملته الشهيرة على مصر وتدخلت إنجلترا لطرده منها ثم فكرت بريطانيا فى احتلال مصر والتمهيد لحملة فريزر عام ١٨٠٤، وبدأت فى جمع المعلومات عن مصر وشعبها والأحوال فيها واتصل المسئولون بالمستر جون أنتيس وطلبوا منه وضع تقرير عن مصر ومزاياها فلبى أنتيس الطلب مرحبا فأعاد كتابة مذكراته وترجمها إلى الإنجليزية. وهذا الكتاب وثيقة تاريخية نقدمها للقراء المهتمين بتاريخ مصر فى القرن الثامن عشر معلقين بقدر الإمكان على هذا النص التاريخى المهم.

CULTURE HIGH

97756832076

مطابع الأهرام بكورنيش النيل